المرحلـة الثالثـة

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾

obeikandl.com

obeikandl.com

الوقفة العاشرة

[فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : " أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليّ "].

وفيها خمسة دروس

الدرس الأول: معرفة قدر النفس :

بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتماً بألف درهم فكتب إليه: إنه بلغني أنك اشتريت خاتماً بألف درهم، فبعه وأطعم منه ألف جائع، واشترِ خاتماً من حديد بدرهم، واكتب عليه "**رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه**" (١) .

فمن الإنصاف معرفة قدر النفس ووضعها في مكانها الصحيح، ولن يتأتى ذلك إلا بأن يعرف الإنسان كمالاته ونواقصه فهو أبصر بذلك من غيره، وأعلم بعيبه فضلاً عن مميزاته عما سواه، فمن رزقه الله ـ عز وجل ـ الإنصاف من نفسه لن يدعي لها فضلاً ليس فيها، ولن يسلبها نقيصة لازمتها، ولكن يدعو الله ـ عز وجل ـ أن تزيد حسناته ويجتهد مستعيناً به أن يتخلى عن مثالبه.

ومن كان هذا منهجه ألزم نفسه التواضع، وشعر أن كل الناس أفضل منه لأنه لا يرى إلا مميزاتهم ولا يرى لهم عيباً، أما هو فيرى مميزاته وعيوبه فينتقص نفسه كلما رأى عيبها، ولذا فهو يشعر دائماً بالتقصير وهذا قمة الإحسان فقد ورد أن عبد الله بن الزبير قال لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يا خاله متى يكون الرجل محسناً ؟ قالت: إذا شعر أنه مسيء.فقال سبحان الله ومتى يكون مسيئاً ؟ قالت: إن ظن أنه محسن.

---

(١) القرطبي ١٠ / ٥٩ .

فالشعور بالنقص دافع لتمام العمل، أما الشعور بالإحسان فهو أول النقصان، فالمنصف مع نفسه من عرف قدرها، وأنها أخس من أن يحسن الظن بها، فيكون دائماً في ازدياد.

وعلامة معرفة قدر النفس ألا يتطاول على غيره من أهل الفضل، وألا يزدري أهل الابتلاء، وأن يقر لأهل الفضل بفضلهم، وألا ينسب لنفسه ما ليس فيها، وأن يُحسن الظن فيمن أساء ويلتمس له عذر، وأن يقبل الحق من كل إنسان، فإذا جلس مع الصغير قال ما أعظمه اجتباه ربه في صغره فحسناته أكثر وسيئاته أقل، وإذا جلس مع الكبير قال ما أكرمه كان له سبق وفضل علم وعمل وكبير خبرة، وإن جلس مع رفيقه قال لعل له في الخفاء أعمالاً تربو على ما ظهر منه، فيزدري نفسه ويضعها دائماً في موقعها الصحيح.

ولما عرف الراهب قدر نفسه ما تحرج لحظة أن يقول لتلميذه أنت اليوم أفضل مني فإنه بذلك وصل إلى قمة شامخة لن يصل إليها إلا من عرف قدر نفسه حق المعرفة.

وفي ذلك يقول الشيخ ياسر برهامي: نرى هنا مثالاً عظيماً لكل مربٍ وداعية وأستاذ، فعندما علم هذا الراهب بما كان من الغلام من علامات الولاية من صدق المحبة وتحقيق الإخلاص لله ـ عز وجل ـ وما كان منه من دلائل الكرامة صرح له بأنه اليوم أفضل منه، ولم يدخله كبر، ولا عجب، ولا حسد، ولا نظر إلى سبقه، وطول عبادته، ولا نظر إلى سنه وصغر سن الغلام، ولا إلى أنه الأستاذ والغلام التلميذ، ولا وقع في نفسه خطيئة إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف : ١٢] التي هي أصل أخطر أمراض القلوب ومن أعظم أسباب الكفر والعناد، والعياذ بالله (١).

كما نلمح مدى معرفة الراهب بقدر نفسه من قوله أيضاً: "فإن ابتليت فلا تدل عليَّ" فليس ذلك هروباً من المواجهة، ولا تخاذلاً عن دين الله، ولكنه

(١) قصة أصحاب الأخدود ص ٣٢.

استشعر ضعفه البدني، وخشي على نفسه الفتنة إذا عُذِّب، وتواضع وما نسب نفسه إلى الوضاعة، وهذا من كمال معرفته بقدر نفسه في العلم والجسم، فلله دره، فمثل هذا حقيق أن يكون أستاذاً لمنقذ أمة.

الدرس الثاني: الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم :

وهذه مترتبة على سابقتها، وثمرة من ثمارها، فمن عرف قدر نفسه أقر لغيره من أهل الفضل بفضلهم، وما جال بخاطره أن يترفع على من يفضله، وعلى هذا تربى صحابة رسول الله ﷺ فكان الواحد منهم رغم ما له من فضل لا يعُد نفسه من الفضلاء، ويعترف لغيره من أولي الفضل بفضله عليه، فعن جبير ابن نُفير أن نفراً قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله ما رأينا رجلاً أقضى بالقسط ولا أقول بالحق منك يا أمير المؤمنين ! فأنت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، فقال عوف بن مالك رضي الله عنه: كذبتم والله لقد رأينا خيراً منه بعد النَّبيّ ﷺ، فقال من هو يا عوف ؟ ، فقال: أبو بكر، فقال عمر: صدق عوف وكذبتم، والله لقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك وأنا أضل من بعير أهلي[(١)] .

وعن زياد بن علاقة قال: رأى عمر رضي الله عنه رجلاً يقول: إن هذا لخير الأمة بعد نبينا، فجعل عمر يضرب الرجل بالدرة ويقول: كذب الآخِر! لأبو بكر خير مني ومن أبي ، ومنك ومن أبيك !![(٢)] .

وعن أبي الزناد قال: قال رجل لعليّ رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين ما بال المهاجرين والأنصار قدَّموا أبا بكر وأنت أوفي منه منقبة وأقدم منه سلماً وأسبق سابقة ؟ ، قال: إن كنت قرشياً فأحسبُك من عائذة[(٣)] ، قال: نعم ، قال: لولا أن المؤمن

---

(١) حياة الصحابة ٣ / ١٥٦، ١٥٧ ، وآخر كلامه رضي الله عنه يقصد حينما أسلم أبو بكر رضي الله عنه وهو مازال على الشرك.

(٢) حياة الصحابة ٣ / ١٥٧ .

(٣) قبيلة من قبائل قريش.

عائذ الله لقتلتك، ولئن بقيت ليأتينك مني روعة حصراء[١] ، ويحك إن أبا بكر سبقني إلى أربع: سبقني إلى الإمامة وتقديم الإمامة، وتقديم الهجرة ، وإلى الغار، وإفشاء الإسلام، ويحك إن الله ذم الناس كلهم ومدح أبا بكر فقال: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** ﴾ [التوبة: ٤٠] [٢].

وبلغ عليًّا رضي الله عنه أن عبد الله الأسود ينتقص أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فدعا بالسيف فهم بقتله، فكُلِّم فيه، فقال: لا يساكنني في بلد أنا فيه فنفاه إلى الشام [٣] .

فالإقرار بالفضل لأهل الفضل من شِيَم النبلاء، وخِصال الأتقياء الأنقياء، ولا يرتقي هذا المرتقى الوعر إلا من عرف أن نفسه كفرس جموح فذللها، وأمسك بخطامها، وقادها قبل أن تجمح به فترديه على أم رأسه فيهوى في مستنقع آسن من الكبر، والعجب، وحب الذات، والاستئثار بالرأى، والأنفة على غيره، وتحقيرهم، فلا يُقر لفاضل بفضله، ولا يقيل لعاثر عثرته، وبدلاً من أن ينشغل بذاته فيصلحها تشغله بالحكم على غيره فيفسِّق هذا ويبدِّع هذا ويحقِّر هذا، ويقدح في هذا، فيتردى ويردي معه غيره من أبناء الدعوة في هوة سحيقة قل من يخرج منها سالماً غير مخدوش أو مجروح.

ومن هذا الباب، باب عدم الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم، دخل الشيطان على بعض ضعاف النفوس ممن ينسبون أنفسهم إلى العلم، والعلم منهم براء، فنفخ في أذنيه حتى ظن أنه قد جمع أطراف الفضل بين جنبيه، فنسب نفسه إلى العصمة فلا يُقِر لغيره بفضل، ثم ينثني كحية رقطاء، ينفث أول ما ينفث سُمه على أساتذته ومن علموه، ثم تزداد دركات هبوطه فيعلوا درجة في القدح فيمن هم أفضل وأعلم، ثم يزيد تدنياً فينال من الرموز، حتى وصل الحال ببعضهم أنه

---

(١) أمر يروِّعك فيضيِّق عليك نفسك.
(٢) حياة الصحابة ٣ / ١٥٨ .
(٣) حياة الصحابة ٣ / ١٥٩ .

بدأ يقدح في بعض الأعلام من تابعي التابعين، ثم التابعين، حتى وصل إلى صحابة رسول الله ﷺ ، ولا أستبعد اليوم الذي يأتي فيه ممن ينتسب لهذه الأمة من يتطاول على ربه متأسياً في ذلك بسلفه من اليهود، فإلى الله المشتكى.

فاعرف قدر نفسك، وضعها في موضعها الصحيح، واشغلها بالله ـ عز وجل ـ قبل أن تشغلك بغيره، وعبِّدها لله ـ عز وجل ـ قبل أن تعبِّدك لغيره، وقر لغيرك من ذوي الفضل بفضله، واعذر من أساء وارجو له الهداية، ولا تنسب أحداً إلى العصمة، ولا تأمن على حي فتنة، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وهي أشد تقلباً من الماء في القدر إذا استحكمت غلياناً، وسل الله التثبيت فما من نعمة أعظم من الإسلام إلا الثبات عليه.

الدرس الثالث: النصيحة الموافقة لوقتها:

بعدما عرف الراهب قوة إيمان الغلام ورسوخه بين جنبيه قال له: « وإنك ستُبتلى » ، وليس ذلك رجماً بالغيب ولا اطلاعاً على بواطن الأمور وإنما لعلمه بسُنن الله الكونية، فمن سننه الكونية أن من آمن به ودعا إليه أن يبتليه ليعلم مدى صدق إيمانه، وليميز الخبيث من الطيب، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت: ١-٣] .

ولذا نال الأنبياء النصيب الأوفر من البلاء في سائر الأمم ثم الأماثل من تلك الأمم وما خُص الإسلام بذلك ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ، بل هذه سُنَّة كونية منذ أن خلق الله ـ عز وجل ـ آدم عليه السلام وستبقى إلى أن تقوم الساعة، فقد ورد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: قلت: "يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاءً؟، قال: **"الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتُلي على قدر دينه، فما يبرح**

البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » (١) .

فلما كان الراهب عالماً بسُنن الله ـ عز وجل ـ الكونية، ثم ظهر له من حال الغلام ما يدل على اصطفاء الله له أخبره أنه سيبتلى، لعلمه أن الابتلاء من لوازم ظهور دلائل الإيمان، ورغم علم الراهب بهذه الحقيقة الربانية والسُّنَّة الكونية إلا أنه لم ينبه إليها الغلام في أول تعلمه للعلم، ولكنه أخرها لوقتها، وهذا من ذكاء الداعية، أن يتخير ما يقول، ويدرك مدى مناسبته للزمان، والمكان، والظروف المحيطة، ولا تكون دعوته خبط عشواء، فيضر أكثر ما ينفع، فها هو النَّبيّ ﷺ يطوف بالكعبة وحولها ما يزيد على ثلاث مائة صنم وما فكر أن يكسرها، وما كسرها إلا في فتح مكة، وأيضاً رغم علمه بأن الكعبة لم تُبْن على قواعد إبراهيم إلا أنه آثر ألا ينقض بناءها؛ لأن كثير ممن أسلم كان حديث عهد بجاهلية، فعن عبد الله بن عمر عن عائشة ﵂ زوج النَّبيّ ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال لها: **(ألم ترى أن قومك لما بنوا الكعبة، اقتصروا عن قواعد إبراهيم)**. فقلت: يا رسول الله ، ألا تردها على قواعد إبراهيم، قال: **(لولا حدثان قومكِ بالكفر لفعلت)**. فقال عبد الله ﵁ : لئن كانت عائشة ﵂ سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم(٢) .

لذا فعلى كل داعية إلى الله أن يدعو إلى الله ـ عز وجل ـ على بصيرة فيتخير من الموضوعات ما يتناسب مع طبيعة المدعوين ومدى موافقتها للزمان والمكان والظروف المحيطة، فإن وُفّق إلى ذلك أثمرت دعوته وأثرت، وإن لم يراعِ ذلك كانت دعوته في واد والناس في واد آخر، وتبعثر جهده وأصبح كمن يحرث في الماء أو ينقش على الهواء أو يغرس أرضاً ملحاء، فلا على جهده أبقى ولا إلى الله

---

(١) رواه الترمذيبرقم ٢٣٩٨ ، وابن ماجة برقم ٤٠٢٣ ، والجامع الصغير برقم ١٠٤٥ ،

(٢) **صحيح** : رواه البخاري برقم ١٥٠٩، ٣١٨٨، ٤٢١٤ ، ومسلم برقم ٣٩٩ / ١٣٣٣ ، والنسائي برقم ٢٨٩١ .

دعا، ولكنه صد عن سبيله وهو لا يدرى، ونفَّر الناس عن دين الله وهو يهزى.

فمن أراد أن يدعو إلى الله يجب عليه أن يخطط لدعوته، ويحدد أولوياته، فلا يؤخر ما يجب تقديمه، ولا يقدم ما يجب تأخيره، ولا يجعل الأصول فروعاً، ولا الفروع أصولاً، بل يضع الأمور في نصابها الصحيح، ويظهر ذلك من وصية النَّبيّ ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن فعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ مُعاذاً رضي الله عنه إِلَى الْيَمَنِ فَقالَ : « **إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً أَهْلِ الْكِتاب فَادْعُهُمْ إِلَى شَهادَة أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلكَ فَأَعْلمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِ يَوْمٍ وَلَيْلَة، وَإِنْ هُمْ أَطاعُوكَ لِذَلكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدَّ فِي فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلكَ فَإِيَّاكَ وَكَرائِمَ أَمْوالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّها لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ** » (١) ، فقد رتب له النَّبيّ ﷺ أولويات دعوته، وبما يبدأ وبما يؤخر، ولم يقتصر على ترتيب الأولويات فقط، بل نصحه بما يؤيد دعوته، فنهاه عن الجور، والنظر لما في يد غيره، وكذا الظلم، فمن اتصف بهذه الخزايا فلن يجد من يسمعه أصلاً، أما من اتصف بضدها من الإنصاف، والتعفف، والعدل، فلابد من التفاف الناس حوله، فإن كان كلامه يتوافق مع واقعهم وما هم في حاجة إليه، أثمرت دعوته لا محالة، وضربت بجذورها في أعماق قلوب تابعيه.

الدرس الرابع: لا تتمنوا لقاء العدو :

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

وقول الراهب : (فإن ابتليت فلا تدل عليّ) قاعدة عظيمة في عدم طلب البلاء واستجلابه بل البعد عنه وسؤال الله العافية كما قال النَّبيّ ﷺ : (**أيها**

(١) **صحيح** ، رواه البخاري برقم ١٣٨٩، ١٤٢٥، ٤٠٩٠، ٦٩٣٧ ، ومسلم برقم ٢٩ / ١٩ ، وأبو داود برقم ١٥٨٤ ، والترمذي برقم ٦٢١ ، وابن ماجة برقم ١٧٨٣ ، والنسائي برقم ٢٥١٢ ، وزيادة الجامع الصغير برقم ١٦٥٧ ، ورياض الصالحين برقم ٢٠٨ .

الناس لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتوهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) (١)

فهذا هو الأمر الشرعي الذي أمرنا به، ووقوع البلاء أمر قدري كوني يجري علينا بغير طلبنا، وإن كان الفرار من البلاء لا يعني أن يترك الإنسان الواجبات أو يفعل المحرمات مثل من قال الله فيهم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) ﴾ [العنكبوت :١٠-١١] .

وأما التعرض للبلاء والاستهانة به غرور مذموم، فمن أدري هذا الطالب للبلاء الحريص على وقوعه به أنه يصبر عنده، فهو في حقيقته تزكية للنفس وإحسان الظن بها وقد حذرنا القرآن من ذلك قال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم :٣٢].

ونحن نرى في هذا المقام أن الناس ثلاث فرق: طرفين ووسط ، فطرف في سبيل هروبه من المحنة يوالي أهل الباطل ويوافقهم ويتابعهم ويترك ما أوجبه الله عليه من مفارقتهم ومعاداتهم والقيام بالحق في وجوههم، أو يفعل ما حرمه الله عليه من المعاصي طاعة لهم.

وطرف آخر يطلب البلاء بنفسه ويسعى إليه بعمله يظن أنه يربي نفسه ويهذبها ، وقد وقع وهو لا يشعر في شراك العجب والغرور ، وغاب عنه أن خليل الله إبراهيم عليه السلام قال عن سارة أنها أخته، وأن نبي الله موسى ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) ﴾ [القصص: ٢١] .

وهكذا أمر النَّبيّ ﷺ أمته سؤال العافية، وكلا هذين الطرفين مذموم.

---

(١) **صحيح** : رواه البخارى برقم ٢٨٠٤، ٢٨٦١، ٦٨١٠ ، ومسلم برقم ٢٠ / ١٧٤٢ ، وأبو داود برقم ٢٦٣١ ، وأحمد برقم ١٩١٣٧ .

والوسط هم أهل الحق والاتباع، علموا بوقوع البلاء قدراً والتزموا بعدم طلبه وتمنيه شرعاً وصبروا أعظم الصبر عند نزوله، كما فعل هذا الراهب الصالح كما سيأتي بيانه إن شاء الله (١) .

الدرس الخامس : اجعل للسر من دعوتك نصيباً :

فلا يعني كونك داعٍ إلى الله -عز وجل- أن لا يكون في دعوتك ما تُسر به، بل يجب أن تعلم أن أمور الدعوة دائرة بين السر والإعلان، فلكل ظروف ما يناسبها، فها هو الراهب يظل يُعلِّم الغلام زمناً ولم يعلم به أحد، وبعد أن ظهر أمر الغلام يوصيه بقوله : (فإن ابتليت فلا تدل عليًّ) حتى يظل أمره في سرِّية وكتمان ، وتظل دعوته في استمرار وهو بذلك يوافق ما أوصى به الحبيب محمد فقد ورد في السُّنَّة المطهرة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود** » (٢) .

يقول الشيخ سعيد عبد العظيم - حفظه الله - : (٣)

أوصى الراهب الغلام بقوله : (إنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل عليَّ)، أي لا تخبر عني حرصاً من الراهب على استمرارية دعوته، وشبيه بذلك قول الفتية أصحاب الكهف : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الكهف : ٢٠] . وكانوا قد أوصوا صاحبهم بقولهم: ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١٩] .

---

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ ياسر برهامي ٣٥- ٣٦ .

(٢) **صحيح** : رواه الطبراني في الكبير برقم ١٨٣ ، والأوسط برقم ٢٤٥٥ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٦٦٥٥ وفي مسند الشاميين برقم ٤٠٨ ومسند الشهاب برقم ٧٠٨ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٤٥٣ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٩٤٥ .

(٣) قصة أصحاب الأخدود للشيخ سعيد عبد العظيم ١٥٩- ١٦٧ بتصرف يسير وزيادات.

obeikandl.com

وأيضاً ما كان من مؤمن آل فرعون : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾[غافر : ٢٨] .

وهو الذي قال لموسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[القصص : ٢٠] .

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : « **احصوا لي كل من تلفظ بالإسلام**» يقول حذيفة رضي الله عنه قلنا: يا رسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة، قال حذيفة: فابتلينا حتى ما جعل الرجل منا ما يصلي إلا سراً » (١) .

فإخفاء المعتقد قد تكون سياسة يمليها النظر الشرعي، وهي تختلف عن التُقية(٢) والكذب اللتين اعتمدتهما طائفة الشيعة كأصل لها في تعاملها مع المخالفين،كما أنها تفترق أيضاً عن صور الاستكراه التي يضطر فيها المسلم إلى إظهار الكفر مع طمأنينة قلبه بالإيمان، ولمزيد من التوضيح والبيان نذكر لك مسألتين:

المسألة الأولى: ذم إفشاء السر :

لا جدال في أن إفشاء السر شر وأذى يلحق بالأفراد والهيئات والأمم والجماعات، والأسرار التي تستدعي الكتمان كثيرة منها ما هو حربي أو سياسي أو صناعي أو تجاري، وقد يستهين الإنسان بسرِّه ويأتمن عليه النساء أو الأطفال أو من ليس بأمين، بل ويأخذ على تكتمه العهود والمواثيق ثم سرعان ما يجده على كل لسان بعكس ما لو جهر بهذا الخبر فقد لا يؤبه له في كثير من الأحيان.

وكان عمر رضي الله عنه يقول:(من كتم سره كان الخيار بيده)(٣) ،وقال علي رضي الله عنه :

---

(١) **صحيح**: رواه البخاري برقم ٢٨٩٥ ، ومسلم برقم ٢٣٥ / ١٤٩ ، وابن ماجة برقم ٤٠٢٩ ، وابن حبان برقم ٩٢٧٣ .

(٢) **التقية**: إظهار خلاف ما في القلب خوفاً من الظالمين، أما استخدامها في كل حال ومع كل أحد ، **فهي** كذب صريح .

(٣) كنز العمال برقم ٨٨١٥ .

(سرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرتَ أسيره) ، وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : (ما استودعتُ رجلاً سراً فأفشاه فلُمته لأني كنتُ أضيَق صدراً حين استودعته منه حين أفشاه)[١] وقال أحدهم : (إذا أفشيتُ سري إلى صديقٍ فأذاعه فهو في حلٍ، قيل : وكيف ذلك ؟ ، قال لأنني كنتُ أحقُ بصيانته منه وكيف يُلام مستودَع سراً إذا ضاق صدر مستودِعه)، وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يقول : (القلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل إنسان مفتاح سرِّه)[٢] ،وقال الوليد بن عتبة لأبيه : (يا أبت إن أمير المؤمنين أسرَّ إليَّ حديثاً وما أراه يطوى عنك ما بسطه إلى غيرك؟ ، قال : فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه)[٣] ، وقال معاوية رضي الله عنه : (الحازم من كتم سره عن صديق مخافة أن تتبدل صداقته عداوة فيذيع سرَّه) ، وقال المهلب بن أبي صفرة : (من ضاق قلبه اتسع لسانه وما كتمته عن عدوك فلا تُطلع عليه صديقك)، وكتب رجل لابنه يقول : (يا بني من استودعك سرَّه فقد ملَّكك أمره فاجعل صدركِ قبره تستوجب حمده وشكره)، وهذا الذي ذكرناه لا ينفي وجود بعض من يصون السرَّ كما لا ينفي وجود حالات تستدعي الإسرار ومنها:

[١] إتيان شعار الكفار على سبيل التُقية :

أن يُسِرَّ الشخص بالإسلام خوفاً من الكفار ويأتي شعائر الكفار الخاصة بهم من عبادات وطقوس تُقية وهذه الصورة لا يحل أن يفعلها المسلم إلا في حالة واحدة وهي حالة الإكراه المعتبر شرعاً، قال الله تعالى : ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل : ١٠٦].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي برقم ٩٤٩٩ وكشف الخفاء للعجلوني برقم ٢٥٨٥ .
(٢) المستطرف ١ / ٤٤٣ .
(٣) الصمت ١ / ٢١٤ برقم ٤٠٧ ، وإحياء علوم الدين ٣ / ١٣٢ .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءً لمهجته ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد أحد ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها ، رضي الله عنه وأرضاه)[١] ، وقال ابن حجر : قال ابن بطال : (أجمعوا على أن من أُكره على الكفر واختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة)[٢] .

[٢] إخفاء المعتقد مع عدم مخالفته الشرع :

أن يُسرَّ المسلم بإسلامه ولكنه لا يأتي شيئاً من أمور الشرك وعبادات المشركين وطقوسهم، ويشرع ذلك إذا خاف، أو كان هناك مصلحة شرعية في كتم إسلامه، كحال مؤمن آل فرعون، قال ابن العربي : (إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمناً حتى يتلفظ بلسانه، ولا تمنعه التُقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى ، إنما تمنعه التُقية من أن يسمعه غيره وليس شرط الإيمان أن يسمعه الغير)[٣] ، وروى البخاري قول النَّبيّ ﷺ : (**فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل**)[٤] .

المسألة الثانية: الموازنة بين السرّية والعلنية :

أن يُسر المسلم بالدعوة إلى الله تعالى إن خاف على نفسه أو خاف على أتباعه من المسلمين وهم قلة، والدليل على ذلك فعل الرسول ﷺ في بداية

---

(١) عمدة التفسير ٢ / ٤٣٧

(٢) فتح الباري ١٢ / ٣٦٩ .

(٣) القرطبي ١٥ / ٢٠١ .

(٤) البخاري برقم ٦٤٧٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المقداد رضي الله عنه سأله النبي ﷺ قائلاً : إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته ؟ ثم قال...... .

الدعوة بمكة ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما زال النَّبيّ ﷺ مستخفياً حتى نزلت : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر : ٩٤] [١] ، فخرج هو وأصحابه، والجهر بالدعوة هو الأصل وذلك حتى يسمعها القاصي والداني ، والقريب والبعيد، لكن إذا غلب ظن الداعي إلى الله أن دعوته تجتث من أساسها بسبب الجهر بها أو خاف أن يناله أذى محقق لا يقدر على تحمله فعليه أن يسر بها حينئذ ، يقول البوطي : (ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيُقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم إذا ما أجمعوا قتالهم فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس لأن المصلحة المقابلة ، وهي مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع) .

وقال العز بن عبد السلام : (فإذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس في طيها مصلحة) قلت - ما زال الكلام للبوطي - وتقديم مصلحة النفس هنا من حيث الظاهر فقط أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي في مثل هذه الحال أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم.

والخلاصة :

أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها، وكان ذلك مفيداً) أ. هـ .

ومن صور السرِّية والتكتم ما حدث من رسول الله ﷺ يوم الهجرة ونلمس

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان رسول الله ﷺ مستخفيًا سنين لا يُظهر شيئًا مما أنزل الله حتى نزلت ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ يعني : أظهر أمرك بمكة .

من ذلك أن النَّبيّ ﷺ كان يجهر أحياناً ويسر أحياناً حسبما تقتضيه المصلحة الشرعية وليست المرحلة السرِّية منسوخة بعد الأمر من الله ـ عز وجل ـ بالصدع والإنذار بل حكمها باق كلما احتاج المسلمون إلى ذلك وسيبقى الأصل هو الجهر بالإسلام والدعوة إليه وإنما تجب السرِّية لضرورة من الضرورات .

ونحن اليوم بحاجة إلى دعوة علنية سلمية نعصم بها دماء المسلمين وأعراضهم، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين بسبب سرِّية أشبه شيء بها الآن النعام التي تدفن رأسها في الرمال وجسدها مكشوف وبذلك يسهل صيدها وذبحها .

obeikandl.com

obeikandi.com

الوقفة الحادية عشرة

[وكان الغـلام يبرئ الأكمـه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال: " ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني " فقال: " إني لا اشـفي أحداً إنما يشفي الله تعالى فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك " ، فآمن بالله فشفاه الله] .

وفيها سبعة دروس :

الدرس الأول: فضل الإخلاص :

الإخلاص[١] هو أفضل ما يُكتب في صحائف الأعمال، وأثقل ما يوضع للعبد في الميزان، فهو مقصود هذا الدين، وما يرتضيه من العباد رب العالمين، فكل عمل ليس متصفاً به فهو هباء منثوراً بل إلى العدم أقرب، فهو أحد شرطي قبول العمل، الإخلاص لله ـ عز وجل ـ والمتابعة لرسوله ﷺ ، كما أن تحقيق الإخلاص هو سبيل الخلاص من الشيطان باعترافه هو حيث يقول الله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر : ٣٩-٤٠] . فقد اعترف الشيطان بعجزه عن إغواء المخلصين.

فمن المخلص؟!:

هو الذي يعمل ولا يحب أن يحمده الناس[٢] .

---

(١) قد بسطت القول عن حقيقة الإخلاص وأهميته في كتاب « الأصول الأربعة » فارجع إليه راشد غير مأمور .

(٢) القرطبي ١ / ٢٨ ، و وقاية الإنسان ص ٢٦٧ .

وقال يعقوب المكفوف: " المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته ".

وما الإخلاص؟ :

قال سهل: " الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى"، وقال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ : " الإخلاص هو صدق النية مع الله "، وقال أبو عثمان: " الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق "، وقيل الإخلاص " دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها ".

وقال النَّبيّ ﷺ : « **إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتُغي به وجهه** »[١] رواه النسائي .. وصححه الألباني [٢] .

فالإخلاص: هو إفراد الحق سبحانه وتعالى بالقصد في الطاعة، وهو يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى ، لا لشيء آخر من: تصنع للمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى.

وقيل في معناه: " هو استواء أفعال العبد في الظاهر والباطن " وعن الفضيل ابن عياض قال: " ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما " وعن سهل التستري قال: " نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا، أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء لا نفس ولا هوي ولا دنيا " .. وعن ذي النون قال: " ثلاث من علامات الإخلاص، استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة" [٣] .

---

(١) رواه النسائي برقم٣١٣١ ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ١٨٢٨ وحسنه ، وكنز العمال برقم ٥٢٦١ ، وحسنه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٥٢ ، وفي النسائي برقم ٣١٤٠ .

(٢) وقاية الإنسان ص ٢٦٧ .

(٣) إرشاد الطالب لتحقيق أهم المطالب ص ١٦ ، ١٧ .

ويؤخذ من كل ما سبق أن الإخلاص هو إفراد الله بالعبادة وعدم الالتفات لغيره ممن هم دونه من خلقه وتنزيهه ـ عز وجل ـ عن الشرك والشريك .

ولما كان هذا وصف الإخلاص ظهرت أهميته في صلاح الأعمال وفسادها، ومن أجل ذلك جعله الله ـ عز وجل ـ أول حق له على الناس، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: " كنت رديف النبيّ ﷺ فقال لي : « **يا معاذ.. أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟** » ، قلت الله ورسوله أعلم. قال: « **حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشركوا به شيئاً** » قلت: " يا رسول الله أفلا أبلِّغ الناس ؟ ، قال: « **لا تبشرهم فيتكلوا** » (١).

قال الألباني ـ رحمه الله ـ: وقد تقرر في الشرع أن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العبادات إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، والأدلة على ذلك من الكتاب والسُّنَّة كثيرة جداً، منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [الكهف : ١١٠] ، وقوله أيضاً: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] (٢) .

قال صاحب فتح المجيد ـ رحمه الله ـ:

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي ليس لي من الربوبية ولا من الألوهية شيء بل ذلك كله لله وحده لا شريك له، أوحاه إليّ ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أي يخافه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ

---

(١) البخاري برقم ٢٧٠١ ، ٥٦٢٢ ، ٥٩١٢ ، ٦١٣٥ ، ٦٩٣٨ ، ومسلم برقم ٣٠ / ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، وابن ماجة برقم ٤٢٩٦ ، والترمذي برقم ٢٧٨١ ، وكنز العمال برقم ٢٨٣ ، ومجمع الزوائد برقم ١٤٩ ، ورياض الصالحين برقم ٤٢٦ .

(٢) نقلاً من فضل العلم وآداب طلبته ص ١١٦ .

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ قوله ﴿ أَحَدًا ﴾ نكرة في سياق النهي تعم وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم . . . ثم نقل عن ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ أنه قال في الآية ـ يقصد الآية السابقة ـ أي كما أن الله واحدٌ لا إله سواه فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له،فكما تفرد بالألوهية يجب أن يُفرد بالعبودية، فالعمل الصالح :هو الخالص من الرياء المقيد بالسُّنَّة (١) .

فالتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه(٢) .

ولا خلاف أن الإخلاص شرط صحة العمل وقبوله (٣) .

ولما كان من مقررات الشرع ومن مسلمات الدين أن لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وأريد به وجهه فقد نبه النَّبيّ ﷺ على عظم شأن النية ووجوب تخليصها مما قد يشوبها من شوائب تفسد القصد وتحبط العمل .

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه**» (٤) .

ومن أهم ما يفسد المقاصد ويقلب النوايا ويقيض صرح الإخلاص في القلب الإشراك بالله ، وهو أن يجعل لغير الله ـ مع الله ـ نصيباً في عمله.

فلما كان هذا وصف الإخلاص، كان المخلصون هم أصفياء الله وأولياؤه، وحزبه وأهل عنايته، فيُفيض عليهم بأجل نِعَمِه، ويؤيدهم وينصرهم، ومن وسائل تأييده لهم إظهار الكرامات على أيديهم، وهذه إنما هي ثمرة من ثمار

---

(١) فتح المجيد ص ٣٥٧ . (٢) السابق ص ٣٨١ .

(٣) السابق ص ٣٦٠ .

(٤) البخاري برقم ١ ، ٤٥ ، ٢٣٢٩ ، ٣٦٨٥ ، ٤٧٨٣ ، ٦٣١١ ، ٦٥٥٣ ، ومسلم برقم ١٥٥ / ١٩٠٧ ، وأبو داود برقم ٢٢٠١ ، وابن ماجة برقم ٤٢٢٧ ، والترمذي برقم ١٦٩٨ ، والنسائي برقم ٣٤٢٨ ، والجامع الصغير برقم١ ، وكشف الخفاء برقم١ ، وكنز العمال برقم ٨٧٧٩ ، ورياض الصالحين برقم ١ .

الإخلاص، فها هو الغلام لما أخلص لله آتاه من الكرامات ما لا يخطر له ببال، فكان مستجاب الدعوة وكان يبرىء الأكمه (وهو من ولد أعمى) والأبرص ويداوي الناس من سائر الأمراض بإذن الله ، ولما آمن جليس الملك وأخلص لله أكرمه ربه ومنَّ عليه فرد عليه بصره ونور له بصيرته، فهلا كان لك من الإخلاص نصيب، حتى ينالك من الفضل بسببه، فتكون من أهل الله وخاصته، وموضع تأييده ونصره وعنايته، ومحل رعايته.

الدرس الثاني: منزلـــة الدنيـــا :

تتفاوت منزلة الدنيا وزخرفها من إنسان لآخر، فعند أهلها الذين عاشوا وماتوا من أجلها هي كل شيء ويمثل المال عمودها الفقري والسلطان والنعيم تاجها ،فمن كان من أهلها يظن أنه يستطيع أن يعمل كل ما يريد ويحصل على كل ما يتمنى فهو يستطيع أن يشتري من يشاء بما شاء من ماله ولا يظن أن يستعصي عليه أمر، ولا يخطر بباله أو يجول في خاطره أن يحول بينه وبين ما يريد إرادة غير إرادته، أما من عبَّد قلبه لله ، فالدنيا بالنسبة له أحقر من جناح بعوضه، ويمثل المال منها أخس ما فيها فلا يستظلان تحت سقف، وينظر إليه على أنه حية رقطاء تتحين له لتنقض عليه فتهلكه ، ونلمح ذلك من كلام جليس الملك الذي جمع عصبي الدنيا المال والسلطان حين قال للغلام: **(ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني)** وهو يشير إلى هدايا نفيسه حملها بين يديه، وظن أن لعاب الغلام سيسيل لأول وهلة عند رؤيتها، كما أنه لن يخرج عن طوعه ولن يجرؤ أن يرد له أمر وهو من هو، فما بالك إن كان عز السلطان وبهرجة المال، فمن وجهة نظره الأمر محقق لا محالة، ورغم ذلك لم يرهب الغلام قهر السلطة ولا برق في عينيه وميض المال فلم يُعِر اهتماماً لتلك الهدايا، ولم ينظر إليها، ولم يفتش فيها، ولا ذكرها في حديثه، فالمال بالنسبة لجليس الملك كل شيء وبالنسبة للغلام لا شيء، فشتان بين مشرق ومغرب.

فاعلم أن الناس كلهم أغنياء ولكنهم ينقسمون إلى قسمين:

الأول: يستمد غناه وعزه ومكانته من عرض زائل فتجده يسعى في كل فج ليحصِّل مصادر عزه وعنوان غناه ، فمنهم من يظن أن السلطان هو كل عزه فيسعى ليحصِّله، وغيره يظن أن المال هو أصل عزه فيلهث خلفه يجمعه من حرامه وحله، ليملك به عقارات وأطيان وسيارات، فهذا عزه ومكانته مرهون بما يملك من عرض زائل ، فإن زال زال معه ولا تجد له ذِكْر.

الثاني: يستمد غناه وعزه ومكانته مما يملك من أخلاق حميدة ، وصفات سامية رشيدة، فهذا رغم أنه لا يملك من عرض الدنيا الزائل شيئاً إلا أن سلطانه متربع على عرش القلوب طيلة حياته، خالد ذكره بعد مماته، فشتان بين الغنى الحقيقي والزائف ، وبين من مات حياً ولُعن ميتاً ، ومن عاش حيناً من الدهر حتى بعد أن طواه الثرى ، وما ذلك إلا لمنزلة الدنيا في نفس كل منهما ، وفي ذلك ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: (**ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس**)(١) .

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

فغنى النفس بالله هو الذي يسد فقر الآدمي وحاجته ، وأما غناه بأعراض الدنيا فهو الفقر بعينه. ولننظر كيف لم يلتفت الغلام إلى الهدايا ولو بكلمة لا بمدح ولا بذم ولا بقبول ولا بترك ، فقد أسقط ذكرها بالكلية وشرع مباشرة في علاج الرجل من مرضه العضال الذي لا يشعر به وهو مرض القلب.

وهذا هو الواجب على الدعاة إلى الله أن لا يجعلوا للدنيا قيمة في دعوتهم ولابد لهم من هدم الميزان الفاسد بتعظيم من ملكها واحتقار من فقدها.

فالمجتمع الذي يريدون بناءه لا يقبل فيه هذا الميزان الذي ضلت بسببه الأمم قديماً وحديثاً من عصر نوح عليه السلام إلى زماننا ، حيث قال قوم نوح له: ﴿ وَمَا نَرَاكَ

---

(١) البخاري برقم ٦٠٨١ ، ومسلم ١٢٠ / ١٠٥١ ، والترمذي برقم ٢٣٧٣ وابن ماجة برقم ٤١٣٧ ، وأحمد برقم ٧٣١٤ ، وابن حبان برقم ٦٧٩ .

اتَّبعكَ إلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [هود : ٢٧] .

وقال هرقل لأبي سفيان : (وسألتك من يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ ، فزعمت أن ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل)[١] .

وما أحسن ما قاله الهروى في نعت الفقر: أنه نفض اليدين من الدنيا ضبطاً أو طلباً وإسكات اللسان عنها ذماً أو مدحاً والسلامة منها طلباً أو تركاً)[٢] .

فنفض اليدين منها ضبطاً أي بالنفقة منها في سبيل الله وطلباً بعدم الحرص عليها والسعي لتحصيلها وإسكات اللسان عنها ذماً أو مدحاً لسقوطها من القلب فلا تستحق الذكر ولو بالتحقير.

فإن الذم إنما يستعمل لتهوين فقدها على من فقدها ولو سقطت بالكلية ما ذكرها ، كما فعل هذا الغلام الصالح فلم يتكلم فيها مطلقاً لتسقط أيضاً من عين جليس الملك الذي يراد أن ينضم للمجتمع الجديد ويزن بالميزان الجديد، وهل نرى أحداً يذم جناح بعوضة[٣] وقول مثلاً : أنه لا يساوي شيئاً، أم هل تجد من يقضي وقته في بيان نقص الجدي الأسك[٤] الميت[٥] وأنه لا يستحق أن

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري برقم ٧، ٤٢٧٨ ، ومسلم برقم ٧٤ / ١٧٧٣ ، وابن حبان برقم ٦٥٥٥ ، والطبراني في الكبير برقم ٧٢٦٩ .وانظر إلى قول هرقل عن الأغنياء بالأشراف ووصفه الفقراء بالضعفاء.

(٢) نقله عنه ابن القيم في طريق الهجرتين ص ١٦ ، ويقصد في هذا التعريف الفقر إلى الله ، فهذه صفات الغنى الحقيقي الذي لا يلتفت صاحبه إلى الدنيا طرفة عين.

(٣) عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا من شربة ماء** » رواه الترمذي برقم ٢٣٢٠ ، وابن ماجة برقم ٤١١٠ ومستدرك الحاكم برقم ٧٨٤٧ ، والطبراني في الكبير برقم ٥٨٤٠ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٦٨٦ ، وفي صحيح ابن ماجة برقم ٤١١٠ .

(٤) **الأسك** : هو مقطوع أو صغير الأذنين.

(٥) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلاً من بعض العالية والناس كنفته فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟** » فقالوا ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟ قال: « **أتحبون أنه لكم ؟** » قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت ؟ ، فقال : «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم** » ، رواه مسلم برقم ٢ / ٢٩٥٧ ، وأبو داود برقم ١٨٦ ، وأحمد برقم ١٤٩٧٢ ، وسنن البيهقي الكبرى برقم ٦٤٥ .

obeikandl.com

يعمل من أجله أو يحرص عليه أو يبخل به ؟!.

فلو كانت الدنيا عندنا كما هي عند رسول الله ﷺ في هذين التشبيهين: جناح البعوضة، والجدي الأسك الميت ، لما ذكرناها بمدح ولا ذم. وأما السلامة منها طلباً أو تركاً فالزهد في الزهد فيها.

فمن شهد أنه ترك شيئًا ذا قيمة أو أنه لم يطلبها وكان بإمكانه أن يطلبها ولكنه زهد فيها عامداً ، فهي لا تزال ذات شأن في قلبه ولو سلم منها لما شعر أنه ترك شيئاً، فهل يعود أحد منا إلى أهله ويقول لهم: كان أمامي بعوضة في الطريق أو دجاجة ميتة وتركتها وزهدت فيها وكان بوسعي أخذها ؟!.

أم أنه لا يذكر هذا لأحد بل ويستحي أن يقول ذلك أو يفكر فيه ، وهذا كله يدلنا على أننا مازلنا بحاجة إلى أن نسقط الدنيا من قلوبنا ، وعند من ندعوهم إلى الله كذلك(١) .

الدرس الثالث: إياكم والغلو :

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة : ١٤٣] .

قال البيضاوي في معنى الآية: (أي خياراً أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل وهو (أي الوسط) في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط كالجود بين الإسراف والبخل والشجاعة بين التهور والجبن ثم أطلق على المتصف بها مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها)(٢) .

وفي تفسير أبي السعود: الوسط في الأصل اسم لما يستوي نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة ثم استعير للخصال المحمودة البشرية لأن الأطراف يتسارع

---

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ ياسر برهامي ص ٤٢-٤٤ .
(٢) تفسير البيضاوي ١ / ٤١٥ .

openkanadaline.com

إليها الخلل والأعواز والأوساط محمية محوطة كما قيل واستشهد عليه بقول ابن أوس الطائي:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً [١]

وفي تفسير النسفي: (خياراً وقيل للخيار وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأوساط محمية) [٢].

وقال الألوسي: (الصراط المستقيم هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل الأخلاق وفي كل الأعمال وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ [البقرة: ١٤٣] [٣].

وقال الراغب: (وسط الشيء: ما له طرفان متساويًا القدر، ويقال ذلك في الكمية المتصلة كالجسم الواحد)، ثم قال: (والوسط تارة يقال فيما له طرفان مذمومان يقال: هذا أوسطهم حسباً: إذا كان في واسطة قومه وأرفعهم محلاً وكالجود الذي هو بين البخل والسرف فيستعمل القصد المصون عن الإفراط والتفريط فيمدح به نحو السواء والعدل والنصفة نحو: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾ [البقرة: ١٤٣] [٤].

اعلم إنه من حكمة الله البالغة، ومن سُننه الكونية، أنه ما خلق خلقاً، ولا أمر أمراً، إلا وله وسط حميد، وطرفان مذمومان، وسمى الوسط وسطاً لا غيره، وأما الطرفان فأحدهما يبعد عن الوسط بالنقصان ويُسمى تقصيراً، وجفاءً، وتفريطاً، والآخر يبعد عن الوسط بالزيادة ويسمى تزيُداً، وغلواً، وإفراطاً، واستحب الله الوسط وأكد على لزومه، ونهى عن الطرفين وأكد في النهى، وبين أنه في لزوم الوسطية مصلحة البلاد والعباد، وفي لزوم أحد الطرفين فساد البلاد والعباد،

(١) تفسير أبو السعود ١ / ١٧٢.
(٢) تفسير النسفي ١ / ٨٧.
(٣) روح المعاني ١/٩٢.
(٤) المفردات ٢/٦٧٧.

وأصل الوصول إلى كلا الطرفين هو الإلحاد، والاستقرار عند أحد الطرفين يُسمى تطرفاً [١]، وأصل لزوم الوسطية والاستقرار فيها هو الحنيفية.

فالإلحاد هو الميل عن الحق إلى الباطل، أي البعد عن الوسط والاتجاه نحو أحد الطرفين، فيستقر في النهاية إما إلى غلو، وإفراط، أو إلى جفاء، وتفريط، فالملحد هو كل مائل عن الحق.

والحنيفية هي الميل عن الباطل إلى الحق أي البعد عن كلا الطرفين إلى الوسط، والحنيف هو كل مائل إلى الحق.

لذا كان من أخص صفات أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام أنه كان حنيفاً، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾.

[النحل: ١٢٠].

ولما انحرف اليهود والنصارى عن الوسطية نفي ما ادعوه من كون إبراهيم منهم وبرأه مما قالوا وأثبت له ثباته على الحنيفية فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) ﴾.

[آل عمران: ٦٧].

ثم وصى نبيه ﷺ بأن يتبع ملة إبراهيم عليه السلام ويلتزم منهجه من الوسطية الحنيفية فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾[النحل: ١٢٣].

---

(١) **التطرف**: هو الاستقرار عند أحد الطرفين بعيداً عن الوسط، فمن استقر على التزيد والغلو والإفراط فهو متطرف، ومن استقر على التناقص والجفاء والتفريط فهو أيضاً متطرف؛ لأن كلاً منهما قد استقر عند أحد الطرفين، وإنما أردت أن أبين هذه النقطة لأنه قد استقر في معظم الأذهان أن التطرف قاصر على من غالي في دينه أما من قصر إلى حد تضييع دينه لا يعدونه متطرفاً بل قد يُضرب به المثل في الاعتدال رغم أنه متطرف أيضاً، وقد يتَهِم غيره ممن التزم الوسطية بالتطرف حتى لا يُلتفت إليه، وهذا حال معظم العقلانيين في الوقت الحاضر، الذين لا يرضون من الإسلام إلا بما يوافق عقولهم القاصرة، فما وافقها فهو ثمَ الإسلام وما خالفها عدوه تطرفاً رغم أنه عين الوسطية، فيجب أن نزن الأمور بميزان الشرع، ولننتبه إلى هذه الفئة فعن طريقها يتم الطعن في دين الله - عز وجل -، والنيل من الإسلام باسم الإسلام، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

obeikandl.com

وليس ذلك فحسب بل أمره بأن يعترف بأن حنيفية إبراهيم عليه السلام هي الدين القيم ، وأن الله ـ عز وجل ـ قد منَّ عليه بأن هداه إلى ملة إبراهيم عليه السلام ويفتخر بذلك فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) ﴾ [الأنعام : ١٦١] .ثم أمره أن يكون ﷺ هو الآخر حنيفاً ويتمسك بها ولا يحيد عنها فإنها الدين القيم الذي لا اعوجاج فيه فقال تعالى :﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) ﴾ [يونس : ١٠٥] . ثم مدح ـ عز وجل ـ كل من سلك هذا الطريق والتزم ملة إبراهيم عليه السلام وجعله من أحسن الدين وأقومه فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) ﴾ [النساء : ١٢٥] .

ثم أمر ـ سبحانه وتعالى ـ الأمة الإسلامية كلها بأن تلتزم هذا المنهج وتتمسك بحنيفية إبراهيم ولا تحيد عنها فقال تعالى : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) ﴾ [آل عمران : ٩٥] .

ونبهنا بألا نستجيب لدعاوى الانحراف والإلحاد عن الوسطية ،كدعاوى اليهود والنصارى،وأن نتمسك بحنيفية إبراهيم عليه السلام الذي قد برأه الله ـ عز وجل ـ منهم فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

وطالب الأمة كلها أن يكونوا حنفاء له مخلصين له الدين فقال جل شأنه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) ﴾ [البينة :٥] .

وقد جاء الإسلام بالوسطية الحميدة، ونهى عن الإفراط والتفريط، وكان هذا منهاج الرسول ﷺ وما أُثِر عنه وعن صحابته الكرام رضي الله عنهم ومثال ذلك أمر النَّبيِّ

مبلغاً عن ربه ـ عز وجل ـ بإقامة الصلاة جماعة في وقتها، وبقدر معلوم، وبكيفية معلومة، وما رضى ﷺ من الصحابة بالإفراط ولا بالتفريط في الصلاة .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النَّبيّ ﷺ يسألون عن عبادة النَّبيّ ﷺ فلما أُخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النَّبيّ ﷺ؟ ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: **(أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ ، أما والله أني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم ، وأفطر ، وأصلي ، وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سُنَّتي فليس منِّي)**[1] فها هو النَّبيّ ﷺ ما رضى أن يصلي هذا القائل الليل أبداً لأن في ذلك غلواً وإفراطاً، وتبرأ ممن رغب عن سُنَّته ؛ لأن سُنَّته وطريقته هي الوسطية والاعتدال.

وعلى الطرف الآخر يحذِّر من التفريط فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء)**[2] .

وفي هذا الحديث يهم النَّبيّ ﷺ بأن يُحرِّق البيوت على من فرط في صلاة الجماعة لأنه قصَّر عن الوسطية وفرط فيها، ويُفهم من ذلك أن الوسطية هي روح الإسلام ولبه وعزه وقوته وإنما تسرب إلينا الوهن لما انحرفنا عن الوسطية إلى أحد طرفي الإلحاد ، الإفراط أو التفريط.

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٧٧٦ ، وصحيح ابن حبان برقم ٣١٧ ، وشعب الإيمان برقم ٥٤٧٧ ، وسنن البيهقي الكبرى برقم ١٣٢٢٦ .

(٢) رواه البخاري برقم ٦١٨، ومسلم برقم ٦٥١ / ٢٥٢ ،وأبو داود برقم ٥٤٨ ، والترمذي برقم ٢١٧ ، والنسائي برقم ٨٤٨ ، وابن ماجة برقم ٧٩١ ، وأحمد برقم ٤٣٩٨ ، وابن حبان برقم ٢٠٩٨ .

فمن أراد لنفسه النجاة فعليه بالحنيفية والوسطية فإنها عين الاعتدال، ومن حاد عنها فقد تطرف، ولا يلومن إلا نفسه ولا يأمن عليها الفتنة.

ولن يتم له ذلك إلا بالاعتدال في ثلاثة أشياء: (الغضب والشهوة والعلم).

يقول الشيخ عائض القرني ـ حفظه الله ـ: فيحتاج أن يكون أمرها متوسطاً؛ لئلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه إلى الرخص فيهلك، أو تزيد قوة الغضب فيخرج إلى الجموح فيهلك، وخير الأمور أوسطها، فإذا توسطت القوتان (الشهوة والغضب) بإشارة قوة العلم، دل على طريق الهداية.

فالغضب إذا زاد سهُل عليه الضرب والقتل، وإذا نقص؛ ذهبت الغيرة والحمية في الدين والدنيا، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة، وكذلك الشهوة: إذا زادت كان الفسق والفجور، وإذا نقصت كان العجز والفتور، وإن توسطت كان العفة والقناعة وأمثال ذلك وفي الحديث (عليكم هدياً قصداً) (١). (٢).

واعلم أن ما أصاب أمة الإسلام في هذه الأيام وقبلها جاء معظمه من طريقين الأول الغلو في جانب المعتقدات والثاني التفريط في جانب العبادات.

ومن أعظم مظاهر الغلو في المعتقدات: الغلو في الصالحين وعلماء الدين، فها هو جليس الملك يقول للغلام: (إن أنت شفيتني) وظن أنه قادر على أن يشفيه من دون الله، وهذا من الغلو في الصالحين وقد ثبت أن أول شرك وقع على ظهر الأرض كان بسبب الغلو في الصالحين فقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها

---

(١) رواه أحمد عن أبي بريدة الأسلمي برقم ٢٣٠١٣، وصححه الأرنؤوط. وابن خزيمة برقم ١١٧٩، والحاكم في المستدرك برقم ١١٧٦ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٣٨٨٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٤٠٨٦، وفي ظلال الجنة برقم ٩٥.

(٢) لا تحزن ص ٤١١، ٤١٢ بتصرف يسير.

بأسمائهم ففعلوا فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت (١) .

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

ونلحظ في هذا الجزء من الحديث أن عادة الناس الغلو في الصالحين والتكلم عنهم بما لا يجوز فقالوا عن الغلام أنه يشفي، والحق أنه يداوي ويدعو الله سبحانه .

فلابد للداعي إلى الله أن يحذر من هذا وأن يعالج هذا المرض قبل أن يصل إلى حد تأليه الصالحين وعبادتهم من دون الله .

كما قال هذا الغلام قبل أي كلمة مع جليس الملك : (إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى) .

فبدأ بتقرير التوحيد ومحاربة الغلو وبيان حقيقة عبوديته لله ـ عز وجل ـ ، وكما قال النَّبيّ ﷺ : **(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)** (٢) ، وكما قال ﷺ : **(إياكم والغلو فإنما هلك من كان قبلكم الغلو)** (٣) .

ولا يجوز للداعي أن يظن أنه يمكنه أن يستغل غلو الناس فيه في دعوتهم إلى الالتزام بالحق الذي يقوله لهم فإنهم إن قبلوا الحق لأجله هو لا لأنه هو الحق لم ينفعهم ذلك ويوشكوا أن يتحولوا عنه إلى الباطل بمجرد غيابه هو عنهم، فالحقيقة أنهم عبدوه ولم يعبدوا الله .

والواجب عليه أن يُعبِّدهم لله وحده، وما أعظم موقف أبي بكر رضي الله عنه حين

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٦٣٦ .

(٢) رواه البخاري برقم ٣٢٦١ ، وأحمد برقم ١٥٤، والدارمي برقم ٢٧٨٤ ، وصحيح ابن حبان برقم ٦٢٣٩ ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) **صحيح** : رواه أحمد برقم ١٨٥١ ، وابن حبان برقم ٣٨٧١ ، وسنن النسائي برقم ٣٠٥٧ ، والطبراني في الكبير برقم ١٢٧٤٧ ، وسُنن البيهقي الكبرى برقم ٩٣١٧ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٢٨٣ ، وفي ظلال الجنة برقم ٩٨ ، وفي صحيح ابن ماجة برقم ٢٤٥٥ .

قال كلمته الخالدة عند وفاة رسول الله ﷺ : (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) ، وبهذا حفظ الله الإسلام واستمرت دعوة التوحيد(١) .

الدرس الرابع: الشفاء من عند الله وبقدر الله :

يعتقد البعض أن الشفاء يتحقق لمهارة الطبيب، فما يصاب الإنسان بمرض حتى يهرول باحثاً عن أمهر الأطباء؛ ليبرأ مما أصابه، وإن وفِّق الطبيب نسب إليه كل الفضل، وأقر له بحسن الصنيع، وأعترف له بالجميل، وهذا من الشرك الذي بدا في الانتشار حتى بين طبقات المتعلمين في هذا الزمان.

لذا وجب أن نبين هذا الأمر حتى لا يكون لأحد حجة على الله ـ عز وجل ـ :

أولاً : ما سبب المرض ؟ :

سبب المرض في بعض الأحيان هو معصية العبد لربة ومحبة ربه له وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

[الشورى :٣٠] .

قال عليّ رضي الله عنه : « هذه الآية أرجى آية في كتاب الله . وإذا كان يُكفِّر عنِّي بالمصائب ويعفو عن كثير، فما يبقى بعد كفارته وعفوه؟ !» ، وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حصين فقال رجل: لا بد أن أسألك عما أرى بك من الوجع؛ فقال عمران: يا أخي لا تفعل ! فوالله إني لأحب الوجع ومن أحبه كان أحب الناس إلى الله ، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ فهذا مما كسبت يدى، وعفو ربي عما بقي أكثر(٢) .

قال الضحاك: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ؛ قال الله تعالى:

---

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ ياسر برهامي ٤٤، ٤٥ .

(٢) القرطبي ١٦ / ٢١، ٢٢ .

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾ ثم قال: وأيُّ مصيبة أعظم من نسيان القرآن (١).

فما يصيب العبد من أمراض وغيرها من صنوف الأذى إنما هو من جراء بعض معاصيه لربه ـ عز وجل ـ وما يغفره ربنا أكثر، وإنما ذلك لمحبة الله لعبده رغم معصيته له، فالله ـ عز وجل ـ لا يحب أن يعذب عبده في نار جهنم؛ فيبتليه في الدنيا حتى يلقاه في الآخرة وقد خفت خطاياه، ويوضح ذلك ما ورد عَنْ أنس أن رَسُول الله ﷺ قال: (**إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عَنْه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة**) (٢).

ويؤكده ما ورد عَنْ أبي سعيد وأبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما أنْ النَّبيّ قال: (**ما يصيب المسلم مِنْ نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها مِنْ خطاياه**) (٣).

وكذلك ما ورد عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال دخلتُ عَلَى النَّبيّ ﷺ وهو يوعك فقلت: يا رَسُول الله إنك توعك وعكاً شديداً. قال: (**أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منْكم**) قلت: ذلك أن لك أجرين. قال: (**أجل ذلك كذلك، ما مِنْ مسلم يصيبه أذى: شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته، وحُطت عَنْه ذنوبه كما تَحُط الشجرة ورقها**) (٤).

وما ورد عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النَّبيّ ﷺ قال: (**ما يزال البلاء بالمؤمن**

---

(١) المرجع السابق ١٦ / ٢١.

(٢) رواه الترمذي برقم ٢٥٠٧ وقال حسن غريب، والجامع الصغير برقم ٣٨٥، والمستدرك برقم ١٢٤ / ٨٧٩٩، وكنز العمال برقم ٦٧٩١، ٣٠٧٩٩، ورياض الصالحين برقم ٤٣، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٢٢٠، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٣٠٨، وفي سُنن الترمذي برقم ٢٣٩٦ قال حسن صحيح.

(٣) رواه البخاري برقم ٥٣١٨، ومسلم برقم ٥٢ / ٢٥٧٣، وزيادة الجامع الصغير برقم ٢٨١٤، ورياض الصالحين برقم ٣٧.

(٤) رواه البخاري برقم ٥٣٢٤، ٥٣٣٦، ومسلم ٤٥ / ٢٥٧١، ورياض الصالحين ٣٨.

والمؤمنة ، في نفسه ، وولده، وماله ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة) (١) .

وقال مُرَّة الهمذاني : رأيت على ظهر كف شريح قرحه فقلت: يا أبا أمية، ما هذا؟ ، قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير. وقال ابن عون: إن محمد ابن سيرين لما ركبه الدين اغتم لذلك فقال: إني لا أعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة (٢) .

وقال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها، أو لينال درجة لم يكن يوصله إليها إلا بها (٣) .

فالرضا بالمرض من علامات قبول العبد لقضاء الله ـ عز وجل ـ والصبر عبادة يتقرب بها إليه، فمن رضى وصبر كان له من الله ـ عز وجل ـ الأجر في الدنيا والمغفرة في الآخرة فعن أنس رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: (**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**) (٤) .

ثانياً : من الذي حدد دواء الداء ؟ :

يعتقد البعض أن الطبيب بذكائه وفطنته هو الذي يحدد الدواء، حقاً هو الذي وصف الدواء المحدد سلفاً من قبل الله ـ عز وجل ـ فمن رحمته أنه ما أنزل من داء إلا وأنزل معه دواءه، فعن أسامة بن شريك قال :قالت الأعراب يا رسول الله

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٥١٠ وقال حسن صحيح، وابن ماجة برقم ٤٠٢٣ ، والحاكم برقم ٢٧ / ١٢٨١ وقال صحيح على شرط مسلم، وزيادة الجامع الصغير برقم ٢٨١١ ، وكشف الخفاء ٢٢٦٠ ، وكنز العمال برقم ٦٧٧٧ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٢٨٠ ، وفي سنن الترمذي برقم ٢٣٩٩ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٥٨١٥ .

(٢) القرطبي ١٦ / ٢٢ .

(٣) القرطبي ١٦ / ٢٢ .

(٤) الترمذي برقم ٢٥٠٧ وقال حسن غريب، وابن ماجة برقم ٤٠٣١ ،والجامع الصغير برقم ٢٢٩٨ ، وكشف الخفاء برقم ٦٧٧ ، وكنز العمال برقم ٦٨٠٢، ٦٨٢٣ ورياض الصالحين برقم ٤٣ وحسنه الألباني في سُنن ابن ماجة برقم ٤٠٣١ ، وفي سُنن الترمذي برقم ٢٣٩٦ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٢١١٠ ، وفي مشكاة المصابيح برقم ٤٤ / ١٥٦٦ .

ألا نتداوى؟ ، قال: " **نعم، عباد الله تداووا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء، أو دواء إلا داءً واحداً**" ، قالوا: يا رسول الله وما هو؟ ،قال: "**الهرم**" (١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ : "**إن الله خلق الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء فتداووا، ولا تتداووا بحرام**" (٢) .

فالله ـ عز وجل ـ هو الذي أنزل الداء وهو الذي حدد الدواء ولكن لحكمته ، اختص بعض عباده بأن هداهم إلى أدوية بعض الأدواء فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " **إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله**" (٣) .

ومعنى ذلك أن الطبيب وصف الدواء الصحيح بتوفيق الله له لذلك، فالمرض من قدر الله ، والشفاء منه بقدر الله والدواء أيضاً بقدر الله .

ثالثاً من الشافي ؟ :

الشافي هو الله والشافي من أسماء الله وذلك لما ورد عن عائشة وأنس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى المريض يدعو له قال : " **أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**" (٤) .

(١)رواه بن ماجه برقم ٣٤٣٦ ، وأبو داوود برقم ٣٨٥٥ ، والحاكم في المستدرك برقم ٤١٦ وصححه، والترمذي برقم ٢٠٣٨ وقال حسن صحيح، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٣٢٧١ وسكت عنه، والإمام أحمد برقم ١٨٤٧٧ ،، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، رجال الشيخين ، وصححه الألباني في سُنن الترمذي برقم ٢٠٣٨ .

(٢)رواه أبو داوود برقم ٣٨٧٤ ، وكنز العمال برقم ٢٨٣٢٤ ، والهيثمي في مجمع الزوائد برقم ٨٢٨٨ وقال رجاله ثقات والسيوطي في الجامع الصغير برقم ١٦٩٦ وضعفه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤ / ١٦٣٣ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ١٧٦٢ .

(٣)رواه الحاكم في المستدرك برقم ٨٢٢٠ ، وكنز العمال برقم ٢٨٠٧٩ ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ١٧٨٣ وصححه ، والإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في مسنده برقم ٣٥٧٨ وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره ، وهذا الإسناد حسن ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١ / ٤٥١ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ١٨٠٩ .

(٤)البخاري برقم ٥٣٥١، ٥٤١٠، ٥٤١١ ، ومسلم برقم ٤٦، ٤٧، ٤٨ / ٢١٩١ ، وأبو داود برقم ٣٨٩٠ ، والترمذي برقم ٩٨٠ ، وابن ماجة برقم٣٥٢٠ ، والجامع الصغير برقم ١٥٥١ ، وكشف الخفاء برقم ٣٠٦ ، ورياض الصالحين برقم ٩٠٢، ٩٠٣ .

فالله ـ عز وجل ـ هو الشافي اسماً وفعلاً فلا يجوز أن ننسب ما خص به نفسه لغيره فهذا محض الشرك الذي لا يغفره الله إلا بتوبة، فيجب الاعتراف بالفضل لله ـ عز وجل ـ ومعرفة أن الطبيب لا يعدو أن يكون سبباً أقامه الله لما أراده منه.

وخلاصة القول: أن من اعتقد أن الطبيب شفاه من دون الله ـ عز وجل ـ أو معه فذاك الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بتوبة نصوح، ومن اعتقد أن الطبيب مجرد سبب سببه الله ـ عز وجل ـ ليتم الشفاء فهذا هو الاعتقاد الصحيح الذي يجب أن نلقى الله ـ عز وجل ـ به.

ويجمع ما سبق كله كلمه قالها إبراهيم عليه السلام حينما كان يعترف لله بفضله عليه حينما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء: ٧٧-٨١]. فقد نسب عليه السلام الخلق والهداية والإطعام والسقاية والشفاء والإماتة والبعث لله ـ عز وجل ـ وبين ذلك نسب المرض لنفسه فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ولم يقل عليه السلام وهو الذي أمرضني فهو يشفين ومعنى ذلك أن المرض إنما هو بسبب معصية العبد لله وأن الشافي هو الله.

رابعاً: أفضل طريق لعلاج كل الأمراض:

هناك جملة من الأسباب الشرعية، التي لو أتى بها العبد ستكون بإذن الله سبباً في شفائه مما أصابه من أمراض حتى وإن كانت مستعصية، فقد يرفع الله البلاء بإذنه دون الحاجة إلى طبيب، أو يوفقه لطبيب حاذق فيصف له الدواء الموافق للداء فيبرأ بإذن ربه ـ عز وجل ـ ومنها:

[١] التوبة:

قال العباس رضي الله عنه لما استسقى به عمر رضي الله عنه: "اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة" (١) فلما كانت المعصية هي أصل الداء وسببه

(١) فتح الباري ٢ / ٥٩٤.

obeikandi.com

في الغالب، وجب على المريض أن يتوب من ذنوبه ومعاصيه التي يعرفها هو أكثر من غيره، فكل منا أبصر بعيوبه ، فإذا زال السبب زالت نتائجه وما يترتب عليه من بلايا، فالتوبة والرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ من أهم المقاصد التي لأجلها يبتلي الله عباده ، فقد قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم :٤١] .

[٢] الاستغفار :

وهذه تابعة لسابقتها، وجزء منها، ومتممة لها، وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسولُ الله ﷺ : **"مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ"** (١). فعلى المريض أن يكثر من الاستغفار لعل الله ـ عز وجل ـ أن يزيل همه ويفرج كربه ويشفيه من مرضه.

[٣] التصـدق :

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: **(داووا مرضاكم بالصدقة)**(٢) فمن ابتلاه الله ـ عز وجل ـ بأي مرض عليه أن يكثر من الصدقة عسى أن يمُن الله عليه بالشفاء ، فقد ورد عن عليِّ بن الحسن بن شقيق : سمعت ابن المبارك . وسأله رجل قال : قرحة خرجت في ركبتي مذ سبع سنين وقد عالجتها بأنواع العلاج وسألت الأطباء فلم أنتفع به قال : اذهب واحفر بئراً في مكان حاجة إلى الماء فإني أرجو أن ينبع هناك عينٌ ويمسك عنك الدم قال: ففعل الرجل وبرأ (٣) .

---

(١) **ضعيف**، رواه أبو داودبرقم ١٥١٨ ، وابن ماجة برقم ٣٨١٨ ، وكشف الخفاء برقم ٢٦٠٦ ، وزيادة الجامع الصغير برقم ٣٢٣٦ ، وكنز العمال برقم ٢٠٨٣ ، ورياض الصالحين برقم ١٨٧٣ ،وضعفه الألباني في سنن أبي داود برقم ١٥١٨ ، وفي سُنن ابن ماجة برقم ٣٨١٩ .

(٢) **حسن**، رواه السيوطي في صحيح الجامع الصغير برقم ٤١٦٥ وسكت عنه وكشف الخفاء برقم ١٢٨٥ ، وكنز العمال برقم ٢٨١٨١ ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣٥٨ .

(٣) **ضعيف**،رواه البيهقي في شعب الإيمان ٣ / ٣٢١ برقم٣٣٨١ ،والمنذري في الترغيب والترهيب ٢ / ٤٢ برقم ١٤٢٦ ، وتاريخ الإسلام ١ / ١٣٨٢ ، وقال عنه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب ٢ / ٤٢ برقم ٥٦٥ ضعيف مقطوع.

[٤] الدعاء بظهر الغيب لمبتلي :

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه سمع رَسُول الله ﷺ يقول: **(دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة؛ عند رأسه ملَك موكَّل كلما دعا لأخيه بخير قال الملَك الموكل به: آمين ولك بمثل)** [١] .

وعليه فعلى المريض أن يدعو بظهر الغيب لمريض بمثل مرضه أو بغيره دون أن يُعلمه أنه يدعو له فسيُؤمِّن مَلَكٌ على دعوته وفي تأمينه علامة من علامات قبول الدعاء لذلك المريض ثم يقول ولك بمثل أي لك من الشفاء مثل ما لصاحبك فيكتب الله الشفاء لكليهما، وهذا من فضل الله ـ عز وجل ـ .

الدرس الخامس: رُب كلمة يقولها القائل :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: **(إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً ، يهوى بها في جهنم)** [٢] .

عن بلال بن الحرث المزني رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **(إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه)** [٣] .

فها هنا لا يقر الغلام جليس الملك على كلمة ظاهرها الشرك المحض حين قال: (إن أنت شفيتنى) بل بادر بردها قائلاً: (إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى) ، وهو في ذلك يتمثل منهج النَّبيّ ﷺ الذي ما كان يرضى بسقطات

(١) رواه مسلم برقم ٨٨ / ٢٧٣٣ ، وأبو داود برقم ١٥٣٤ ، وابن ماجة برقم ٢٨٩٥ ، وكنز العمال برقم ٣٣١٠ ، ورياض الصالحين برقم ١٤٩٥ .

(٢) رواه البخاري برقم ٦١١٣ ، والبيهقي في شُعب الإيمان برقم ٤٩٥٥ ، وفي الكبرى برقم ٦٤٤٢ .

(٣) رواه الترمذي برقم ٢٣١٩ ، وقال حسن صحيح، وأحمد برقم ١٥٨٩٠ ، وابن حبان برقم ٢٨٠ ، والحاكم في المستدرك برقم ١٣٦ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٨٨٨ .

اللسان حتى في أحلك الظروف وأخطر المواقف.

فعن أبي واقد الليث رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا : يا رسول الله ؛ اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال النَّبيّ ﷺ «**سبحان الله هذا كما قال قوم موسى ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ والذي نفسي بيده لتركبن سُنَّة من كان قبلكم**» [١] ، فرغم أن النَّبيّ ﷺ مقبل على حرب ويهمه أن يكثّر عدد الجيش؛ إلا أنه عالج الموقف في حينه؛ ولم يؤجله إلى ما بعد انتهاء الحرب، وما رضى أن يكون في جيشه من يتعلق بغير الله .

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه : أن رجلاً خطب عند النَّبيّ ﷺ فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى، فقال رسول الله ﷺ :« **بئس الخطيب أنت، قل ومن يعص الله ورسوله** » قال ابن نمير فقد غوى[٢] فرغم أن الخطيب يحض على طاعة الله والرسول ﷺ إلا أنه لما تلفظ بلفظ فيه تسوية بين الله ورسوله ﷺ بقوله ومن يعصهما وهذا محض الشرك بادره النَّبيّ ﷺ قائلاً: بئس الخطيب أنت، قل ومن يعص الله ورسوله،وما سكت النَّبيّ ﷺ ولكنه عالج الأمر في حينه.

أما نحن فيقرع آذاننا كل يوم ألفاظ تنقض بناء التوحيد في قلب قائلها وما يتحرك لنا ساكن، بل قد يحدث ذلك في معظم بيوتنا، وممن نعول ومن هم تحت أيدينا وما يحمرّ لنا خد ولا ينتفخ لنا ودج وتمر على أغلبنا مرور الكرام.

وقد علق النَّبيّ ﷺ الكفر والإيمان على بعض الألفاظ التي قد يقولها العبد وهو لا يلقي لها بالاً ، كما ورد عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: صلى لنا

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢١٨٠ وقال حسن صحيح، وأحمد برقم ٢١٩٤٧ ، وابن حبان برقم ٦٧٠٢ ، والطبراني في الكبير برقم ٣٢٩٠ ، والنسائي في الكبرى برقم ١١١٨٥ ، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم ٥٤٠٨ ، وفي ظلال الجنة برقم ٧٦ .

(٢) رواه مسلم برقم ٤٨ / ٨٧٠ ، وأبو داود برقم ١٠٩٧ ، وأحمد برقم ١٨٢٧٣ ، وابن حبان برقم ٢٧٩٨ ، والبيهقي في الكبرى برقم ٤٠٦ .

رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس فقال: (**هل تدرون ماذا قال ربكم**) ، قالوا الله ورسوله أعلم ، قال: (**أصبح من عبادي مؤمن وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب ، وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي، ومؤمن بالكوكب**) [١] .

قال أبو حامد الغزالي: واللسان رحب الميدان، ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخي العنان؛ سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هارٍ إلى أن يضطره إلى البوار،ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع؛ فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله، وعِلمُ ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان؛ فإنه لا تعب في إطلاقه،ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله ،وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان [٢] .

فخطورة الكلمة بمكان، تعرف مداه بعلمك أنك تدخل الإسلام بلسانك، وتخرج منه أيضاً به، فكلمة تعصم بها دمك وأخرى تهدره، فإياك أن تطلق للسانك العنان، ولكن تفحص كلامك قبل أن تخرجه، فرب كلمه يقولها القائل تقول لصاحبها دعني، فكم من كلمة قيلت لا يحسب قائلها لنتائجها حساباً خربت بسببها الديار، وهلكت بها الأمصار، وأزهقت الأنفس، وضاعت الحقوق وانتهكت الحرمات .

---

(١) رواه البخاري بأرقام ٨١٠، ٩٩١، ٣٩١٦، ٧٠٦٤ ، ومسلم برقم ١٢٥ / ٧١ ، وأبو داود برقم ٣٩٠٦ ، والبيهقي في الكبرى برقم ٢٨٥٣ ، وابن حبان برقم ١٨٨ .

(٢) الإحياء ٣ / ١٠٨ .

الدرس السادس: الدعاء يُقبل إذا كان لمن يؤمن بالله :

الدعاء إذا كان من قلب مقبل على الله يتحرى الأوقات الفاضلة، والأحوال الشريفة، يتخير من الألفاظ ما يليق بخطاب ربه، ويتناسب مع مطلوبه كان سهماً لا يُرد، فإن كان لغيره فلابد أن يكون محلاً للقبول، فالدعاء لأهل الكفر والضلال مردود، اللهم إلا إذا كان دعاءً لهم حال حياتهم بالهداية والرجوع إلى الله، أما غير ذلك من مصالح الدنيا فلا يقبل الله الدعاء لهم وإن كان الداعي من أخلص الناس وأقربهم إليه، ولذلك لما جاء جليس الملك إلى الغلام وكان كافراً اشترط عليه أن يؤمن بالله أولاً حتى يكون محلاً للقبول، فإنه لو ظل على كفره لما كان للدعاء فائدة، فلما آمن جليس الملك وأصبح محلاً لقبول الدعاء رفع الغلام يديه إلى السماء سائلاً ربه أن يشفيه، فما رد الله يدي الغلام صفراً خائبتين، فما كاد يهوى بهما حتى مَنَّ الله على جليس الملك ورد عليه بصره، فإن أردت الدعاء لأهل الكفر والضلال فادعو الله ـ عز وجل ـ لهم أن ييسر لهم سبل الهداية، وأما أهل البلاء من المؤمنين فاجعل دعاءك لهم بظهر الغيب فيكون لك مثله.

الدرس السابع: استغلال حاجة المستفتي لدعوته إلى الله :

يجب أن يستغل الداعية إلى الله حاجة المستفتي والسائل لدعوته إلى الله قبل أن يجيب فتواه أو مسألته؛ لأن المحتاج يصغي جيداً لمن عنده قضاء حاجته، وهذا ما فعله يوسف مع صاحبي سجنه لما أتياه سائلين إياه أن يعبِّر رؤييهما، فلم يجبهما إلى مطلبيهما ولكنه دعاهما لعبادة الله وحده، ويصور لنا ربنا هذا المشهد قائلاً: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا

مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾.

[يوسف : ٣٦-٤١] .

فها هو يوسف عليه السلام لما جاءه صاحبا سجنه بين لهما أن ما هو فيه من الإحسان، والقدرة على تأويل الرؤى، وكذا إخبارهم بما سيأتيهم من طعام، إنما هو من فضل الله ـ عز وجل ـ لما ترك ملة الكفر، واتبع ملة الإسلام التي جاء بها إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وفي هذا تنبيه لهما لما هما فيه من الضلال، وليس إعجاباً بنفسه وأنفة عليهما ـ وما صرح لهما بذلك ـ ثم دعاهما ليتنعما بهذا الخير الذي هو فيه، وذلك بأن يعبدا الله ـ عز وجل ـ ولا يشركا به شيئاً، وأن ما يدعوهما إليه هو الدين القيم الذي يجب أن يتبعاه، ثم شرع في إجابة مطلبيهما في تأويل رؤييهما.

وها هي أم سليم لما جاءها أبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ راغباً في الزواج منها وكان يومئذ مشركاً وهي مسلمة فأبت عليه إلا أن يُسلم وجهه لله وكان لها ما أرادت ورضيت بأعظم مهر ألا وهو الإسلام فعن أنس بن مالك قال: قال مالك أبو أنس لامرأته أم سليم وهي أم أنس : أرى هذا الرجل يعني النبيَّ ﷺ يحرم الخمر فانطلق حتى أتى الشام فهلك هنالك ، فجاء أبو طلحة فخطب أم سليم فكلمها في ذلك ، فقالت :يا أبا طلحة ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر وأنا امرأة مسلمة،

لا يصلح أن أتزوجك ، قال : وما ذاك دهرك ، قالت : وما دهري ؟ ، قال : الصفراء والبيضاء ، قالت : فإني لا أريد صفراء ولا بيضاء أريد منك الإسلام ، قال : فمن لي بذلك ، قالت : لك بذلك رسول الله ﷺ ، فانطلق أبو طلحة يريد النَّبيّ ﷺ ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه ، فلما رآه قال : «**جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه** » فجاء فأخبر النَّبيّ ﷺ بما قالت أم سليم فتزوجها على ذلك ، قال ثابت : فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه أنها رضيت بالإسلام مهراً فتزوجها (١) .

ويظهر من ذلك أن استغلال حاجة المدعو لدعوته إلى الله من منهاج النبوة، ودأب الصالحين ومسلك العلماء الربانيين من كل أمة، فعلى من تصدى لدعوة الناس ألا يغفل هذا الأسلوب حال دعوته للآخرين عسى أن يكتب الله له التوفيق ويكون دليلاً للناس إلى الخير ، وقائداً لهم إلى الله فيكتب الله له ولهم النجاة يوم القيامة.

ولكن هنا نكتة لطيفة يجب أن يكون الداعية على بصيرة منها، ألا وهي ، هل يشارط (٢) كل من كانت له حاجة أم أن هذا الأمر يجمل مع البعض ولا يجمل مع البعض الآخر ؟

يقول الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ :

الداعي إلى الله يستغل حاجة الناس إليه في دنياهم لدعوتهم إلى الله سبحانه ـ من غير أذى ـ ، ولكن بكمال الشفقة والبحث عن مصلحة دينهم قبل مصلحة دنياهم، ويجعل الدنيا مدخلاً للدين، ويذكر ما علمّه الله وما أقدره عليه من قضاء حاجات الناس مع نسبة الفضل لله ـ عز وجل ـ والنعمة له سبحانه، وأن هذا

---

(١) رواه البيهقي في السُّنن الكبرى برقم ٦٩٢٢ ، والطبراني في الكبير برقم ٤٦٧٦ ، ومصنف عبد الرزاق برقم ١٠٤١٧ ، ومسند الطيالسي برقم ٢٠٥٦ .

(٢) الشارطة : أن يجعل الإسلام وما في معناه من مفرداته شرطًا لقضاء حاجة السائل .

الفضل وهذه النعمة إنما هي بسبب فضل أعظم ونعمة أتم هي نعمة اتباع الدين الحق وترك الأديان الباطلة، فإن هذا الأسلوب من أعظم ما ينبه القلوب الغافلة ويوقظ الفطر المستكنة التي سترتها ضلالات الشرك وغطتها غشاوات التقليد الأعمى، وينبغي أن يراعى في التقديم والتأخير في هذا المقام، أعني هل يُقدِّم دعوته على قضاء حاجتهم، أم يُقدِّم قضاء حاجتهم ثم يدعوهم بعد ذلك، أم يشارطهم أصلاً فلا يسعى في قضاء حاجتهم إلا إذا استجابوا للحق ؟، ينبغي أن يراعي أحوال الناس ونوعيتهم وشدة حاجتهم، والمصلحة والمفسدة في ذلك، فقد قدم يوسف مع صاحبيه في السجن دعوتهم قبل قضاء حاجتهم بتأويل الرؤيا، وأما مع الملك فقدم تأويل الرؤيا مجاناً، بل وزادهم ما ينبغي عمله وبشارة إضافية ليست في الرؤيا بالفرج بعد الشدة،... وغلام أصحاب الأخدود كان يشارط الناس ومنهم جليس الملك الأعمى فقال له: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله ـ تعالى ـ فإن شئت آمنت بالله، فدعوتُ الله لك فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله ـ تعالى ـ ، وهذا والله هو المناسب مع كلٍ منهم، فإن الملوك والكبراء لو شارطهم الداعية مع عدم شعورهم بشدة الحاجة لربما كان سبباً في رفضهم الدعوة، وإظهار العناد، وعدم الحاجة إلى المصلحة الدينية والدنيوية، بخلاف حاجة المريض المتألم، شديد الحاجة، مثل من عمى بعد بصره، فإنه لن يُظهِر مثل هذا العناد فيناسبه المشارطة، وأما مثل حاجة سجين في تأويل رؤيا، فهو متشوف متطلع إلى معرفة مآله ووقت خروجه من السجن، فناسبه أن يُدعى أولاً وهو متشوف ثم تُقضى حاجته دون مشارطة [١] .

---

(١) تأملات إيمانية ص ١٠٨، ١٠٩ .

obeikandl.com

الوقفة الثانية عشرة

[فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: " من رد عليك بصرك ؟ " قال: " ربي " ، قال: " أولك رب غيري؟ " قال: " ربي وربك الله " فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام] .

وفيها درسان:

الدرس الأول: على نفسها جنت براقش :

كانت بَرَاقشُ كلبةً لقومٍ من العرب فأُغير عليهم فهَرَبُوا ومعهم بَرَاقش فاتبع القومُ آثارَهُم بنُبَاح بَرَاقش فهجموا عليهم فاصطلموهم (١) قَال حمزة بن بيض:

لم تكن عن جناية لَحِقَتْني لا يَساري ولا يَميني رَمَتْني

بل جَنَاها أخٌ عليَّ كريمٌ وعلى أهلها بَرَاقِشُ تَجْنِ (٢)

فصار هذا مثلاً يُضرب لكل من كان سبباً في إلحاق الضُر بنفسه .

قال تعالى : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) ﴾ [هود : ١١٣] .

قال ابن كثير: وقوله : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قال ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا،أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ أي:

---

(١) اصطلموهم: أي قتلوهم جميعاً .

(٢) مجمع الأمثال ٢ / ١٤ برقم ٢٤٢٧ .

obeikandl.com

ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه [١] .

قال السعدي : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فإنكم إذا ملتم إليهم ووافقتموهم على ظلمهم أو رضيتم ما هم عليه من الظلم ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ يمنعونكم من عذاب الله ولا يحصِّلون لكم شيئاً من ثواب الله ﴿ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ [٢] .

وبذا يُعلم أن من أهم أسباب ظلم النفس، وإلحاق الضُر بها، والجناية عليها، ملازمة الظالمين والسير في ركابهم، وإعانتهم على ظلمهم.

والعجيب أن هؤلاء الأعوان يظنون أنهم يحسنون صُنعاً ، وإذا سألت أحدهم لم تفعل ذلك؟ قال: (أنا عبد المأمور) ويظن بذلك أنه أفلت من الحساب ونجا من العقاب، كلا، فليتنبه إلى أنه أحد الظلمة.

يقول ابن الجوزي: أترى ما علموا أن مساعد الظالم ظالم وفي الحديث : (كفي بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة) [٣] قال السجان لأحمد بن حنبل : هل أنا من أعوان الظلمة ؟ ، فقال : (لا أنت من الظلمة، إنما أعوان الظلمة من أعانك في أمره) [٤] .

فمن فعل ذلك فهو ظالم، قد جلب الظلم لنفسه ثلاث مرات:

الأولى: لما استعدى المظلومين عليه يفرحون لضُر أصابه ويحزنون لخير حصَّله، ويجأرون إلى الله بالدعاء عليه آناء الليل وأطراف النهار، ومن استطاع منهم أن يلحق به أذى آذاه.

الثانية: لما جلب لنفسه غضب الله في الدنيا بأخذ حقوق المظلومين منه ولو

---

(١) عمدة التفسير ٢ / ٢٤٤ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٤١١ .

(٣) ذكره البيهقي في شعب الإيمان برقم ٩٤٣٠ من قول مالك بن دينار .

(٤) صيد الخاطر ٤٣٩ .

بعد حين فإن دعواتهم ليس بينها وبين الله حجاب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن (**إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**)[١] .

وغضبه - عز وجل - يوم القصاص فعند الله ستجتمع الخصوم وسيؤدى كل ظالم لمن ظلمه مظلمته صغُرت أم كبرت .

الثالثة: إن عرف الحق وثاب إلى رشده وحاول أن ينخلع من تحت يد الظالم أذاقه صنوفاً من العذاب لا تتحملها الجبال الرواسي وها هو جليس الملك أمامك خير مثال، فبعدما كان من المقربين للملك، ومن خواصه، ومن سدنة ملكه ومعينيه على ظلمه الذي بلغ مداه حتى أنه ادعى الإلوهية والربوبية من دون الله ، لما شعر أن جليسه قد فارق منهاجه وصرح له بالحق مازال يعذبه حتى دل على الغلام، ثم بعد ذلك نزع لحمه من عظمة، وشقه من مفرقه نصفين، وما تذكَّر خدماته له، ولا سعيه بين يديه، فأين ساعات الصفاء والمرح ؟، وأين ليالي السمر؟، وأين رحلات اللهو واللعب؟، أين وفاء هؤلاء ؟ !! إنهم لا وفاء لهم، بل هم قوم غُدْر، من وقف في طريقهم تخلصوا منه ولو كان من أقرب الأقربين.

ولذلك حذرنا النَّبيّ ﷺ من التورط بالاقتراب من هؤلاء فيما ورد عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : (**ليأتين عليكم أمراء يقربون شرار الناس ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها فمن أدرك ذلك منكم فلا**

---

(١) البخاري برقم ١٤٢٥ ، ومسلم برقم ٢٩ / ١٩ ،وابو داود برقم ١٥٨٤ ، والترمذي برقم ٦٢٥ ، والنسائي برقم ٢٤٣٥ ، وابن ماجة برقم ١٧٨٣ ، وأحمد برقم ٢٠٧١ ، وسُنن الدارمي برقم ١٦١٤ .

يكونن عريفاً ولا شرطياً و لا جابياً ولا خازناً) [١] .

فإياك أن تكون معيناً لظالم لأنك بذلك تظلم نفسك وتجني على نفسك بنفسك ويصدق فيك المثل: على نفسها جنت براقش.

الدرس الثاني: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر : [٢]

عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**أحب الجهاد إلى الله كلمة حق تُقال لإمام جائر**)[٣] .

وعن أبي أمامة وأبي سعيد الخدري وطارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)[٤] .

وعن طارق بن شهاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**)[٥] .

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**سيد الشهداء حمزة بن عبد**

---

(١) صحيح ابن حبان برقم ٤٥٨٦ ، والطبراني في الكبير برقم ٩٤٩٨ ، وأبو يعلى في مسنده برقم ١١١٥ ، والهيثمي في مجمع الزوائد برقم ٩٢٢٥ وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح خلا عبد الرحمن بن مسعود وهو ثقة ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٣٦٠ .

(٢) هذا الدرس نقلته من كتاب زهر البساتين ١ / ٦٦- ٨١ باختصار وتصرف وزيادات.

(٣) **حسن** ، رواه أحمد برقم ٢٢٢١٢ ، وقال الأرنؤوط : حسن لغيره ، والطبراني في الكبير ٨ / ٢٨١ برقم ٨٠٨٠ عن أبي أمامة رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ١٦٨ .

(٤) **صحيح** ، رواه أبو داود برقم ٤٣٤٤ ، والترمذي برقم ٢١٧٤ وقال حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجة برقم ٤٠١١ ، والحاكم برقم ٥٠٥، ٥٠٦ ، والحميدي في مسنده برقم ٧٥٢ وأحمد برقم ١٨٨٥٠ ، وقال الأرنؤوط : إسناده صحيح .
ورواه ابن ماجة برقم ٤٠١٢ ، وأحمد برقم ٥ / ٢٥١، ٢٥٦ ، والروياني في مسنده برقم ٣٠ / ٢١٥ / ٢ ، وابن عدي برقم ١١٢ / ٢ ، والبيهقي في الشعب برقم ٢ / ٤٣٨ / ١ عن أبي أمامة رضي الله عنه .
ورواه النسائي برقم ٢ / ١٨٧ ، وأحمد برقم ٤ / ٣١٥ ، والبيهقي والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ق٢١ / ٢ عن طارق بن شهاب وصححه النووي والمنذرى، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٤٩١ وفي صحيح الجامع برقم ١١٠٠ .

(٥) **صحيح** ، رواه الترمذي برقم ٢١٧٤ عن أبي سعيد رضي الله عنه ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤٩١ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ١١٠٠ .

obeikandi.com

المطلب ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله) [١] .

وعنه أيضاً رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :(**خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ،ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه في ذات الله فقتله على ذلك)** [٢] .

ومن جملة الأحاديث السابقة يستقر في النفس أن أعظم ألوان الجهاد على الإطلاق كلمة حق يصدع بها قائم لله بحجة عند سلطان جائر ، ولكن يجب أن نحد لهذا الأمر حدوداً ونضبطه بضوابط حتى لا يُظن أنه على إطلاقه، وحتى لا يُطلِق كل منا لنفسه العنان ليحتسب على ولي الأمر ، وهذه الضوابط هي :

أولاً: إذا كان الحاكم مسلماً :

[١] يجب طاعته ما دام يطيع الله ـ عز وجل ـ :

على المأموم والمحكوم أن يطيع الحاكم المسلم في طاعة الله ، ولا يعصيه في معصية الله؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وذلك لما ورد عن عليّ رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ بعث جيشاً وأمَّر عليهم رجلاً فأوقد ناراً ، وقال ادخلوها فأرادوا أن يدخلوها ، وقال آخرون إنما فررنا منها ، فذكروا للنبي ﷺ فقال للذين أرادوا أن يدخلوها (**لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة**) ، **وقال للآخرين (لا طاعة في المعصية إنما الطاعة في المعروف)** [٣] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النَّبيّ ﷺ قال : (**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**) [٤] .

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة

---

(١) **حسن** : أخرجه الحاكم في المستدرك برقم ٤٨٨٤ وقال صحيح الإسناد، والضياء عن جابر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٣٦٧٥ وفي السلسلة الصحيحة برقم ٣٧٤ .

(٢) **صحيح** : أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . كذا قاله العفاني .

(٣) رواه البخاري برقم ٦٨٣٠، ٤٠٨٥ ، ومسلم برقم ٣٩ / ١٨٤٠ ، وسنن النسائي برقم ٤٢٠٥ ، ومسند الإمام أحمد برقم ٧٢٤ ، ومسند البزار برقم ٥٨٩ .

(٤) مسلم برقم ٣٨ / ١٨٣٩ ، وسنن النسائي برقم ٤٢٠٦ وسنن النسائي الكبرى برقم ٧٨٢٩، ٨٧٢٠ .

obeikandi.com

الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل : إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله ؟، قال :« **أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ**» (١) .

[٢] إن عصى الحاكم ربه أو أمر بمعصية يُستحب أن يُنصح سراً :

ويستحب نصيحة الحاكم المسلم سراً من غير تشهير، ولا تعيير ، لحديث عياض بن غنم أن رسول الله ﷺ قال : (**من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُبده علانية ، ولكن ليأخذ بيده ، فيخلو به ؛ فإن قبل منه فذاك ، وإلا كان قد أدى الذي عليه**) (٢) .

وعن أبي وائل شقيق قال : قيل لأسامة بن زيد : ألا تدخل على عثمان فتُكَلِّمه؟، فقال : أترون أني لا أكلمه إلا أُسمعكم ؟،والله لقد كلمته فيما بيني وبينه،ما دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من فتحه) وفي لفظ للبخاري : (**إنكم لترون أني لا أكلمه ! إلا أسمعكم ؟! إني أكلمه في السر**) (٣) .

قال ابن حجر : فقال أسامة قد كلمته سراً دون أن أفتح باباً، أي : باب الإنكار على الأئمة علانية خشية أن تفترق الكلمة. ثم عرَّفهم أنه لا يداهن أحداً ولو كان أميراً بل ينصح في السر جهده) .

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٦٧٦ وقال : هذا حديث صحيح، وأبو داود برقم ٤٦٠٧ ، ومسند الإمام أحمد برقم ١٧١٨٤ وقال الأرنؤوط : حديث صحيح رجاله ثقات ، وسنن الدارمي برقم٩٥ ،وصحيح ابن حبان برقم٥ ، ومستدرك الحاكم برقم٣٣٢ ،ومعجم الطبراني الكبير برقم ٦٢٣ ،وشعب الإيمان برقم ٧٥١٥ ، وصححه الألباني في سنن الترمذي برقم ٤٦٠٧ ، وفي سُنن الترمذي برقم ٢٦٧٦ ، وسنن ابن ماجة برقم ٤٢ .

(٢) رواه الإمام أحمد برقم ١٥٣٦٩ وقال الأرنؤوط : حسن لغيره ، وفي مسند الشاميين برقم ٩٧٧ ، ومجمع الزوائد برقم ٩١٦١ وصححه الألباني في ظلال الجنة برقم ١٠٩٦ .

(٣) رواه مسلم برقم ٥١ / ٢٩٨٩ ، والبخاري برقم ٧٠٩٤ ، وأحمد برقم ٢١٨٤٨ ، والحميدي في مسنده برقم ٥٤٧ .

ثم قال: وقال عياض : مراد أسامة أنه لا يفتح باب المجاهرة بالنكير على الإمام لما يخشى من عاقبة ذلك،بل يتلطف به وينصحه سراً، فذلك أجدر بالقبول (١).

قال النووي-رحمه الله-: (وفيه الأدب مع الأمراء واللطف بهم ووعظهم سراً وتبليغهم ما يقوله الناس فيهم لينكَفُّوا عنهم) (٢).

قال ابن حجر-رحمه الله-: (وفي الحديث تعظيم الأمراء والأدب معهم وتبليغهم ما يقول الناس فيهم ليكفوا ويأخذوا حذرهم بلطف وحسن تأدية بحيث يبلغ المقصود من غير أذية للغير) (٣) .

وأخرج أحمد بسنده عن سعيد بن جُمْهَان قال : أتيت عبد الله بن أبي أوفي وهو محجوب البصر فسلمت عليه ، قلت : فإن السلطان يظلم الناس ويفعل بهم ، قال : فتناول يدي فغمزها بيده غمزة شديدة ، ثم قال : ويحك يا ابن جمهان عليك بالسواد الأعظم، إن كان السلطان يسمع منك فأته فأخبره بما تعلم؛ فإن قبل منك وإلا فدعه فإنك لست بأعلم منه) (٤) .

وقد كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ لا يُحدِّث بالأحاديث التي توهم بجواز الخروج على الأئمة .

قال ابن القيم-رحمه الله-: (ومن دقيق الفطنة : أنك لا ترد على المطاع خطأه بين الملأ، فتحمله رتبته على نصرة الخطأ، وذلك خطأ ثانٍ ، ولكن تلطف في إعلامه به بحيث لا يشعر به غيره) (٥) .

وقال الإمام الشوكاني-رحمه الله-: (ولكن ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام

---

(١) فتح الباري ١٣ / ٦١ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ٩٢ .

(٣) فتح الباري ١٣ / ٦٢ .

(٤) رواه الإمام أحمد ٤ / ٣٨٢ برقم ١٩٤٣٤ ، وابن أبي عاصم في السُّنَّة ٢ / ٥٢٣ والهيثمي في مجمع الزوائد برقم ٩١٦٣، ١٠٤٢٩ وقال رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات، وحسّنه الألباني في السُّنَّة.

(٥) الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية ص ٥٤ .

في بعض المسائل أن يناصحه، ولا يُظهر الشناعة عليه على رءوس الأشهاد، بل كما ورد في الحديث أنه يأخذ بيده، ويخلو به، ويبذل له النصيحة، ولا يذل سلطان الله؛ وأنه لا يجوز الخروج على الأئمة ـ وإن بلغوا في الظلم أي مبلغ ـ ما أقاموا الصلاة، ولم يظهر منهم الكفر البواح)(١) .

[٣] إن لم يقبل النصيحة سراً أو منع العلماء من الوصول إليه يُنصح جهراً :

فإذا احتجب الولاة عن رعيتهم، وحالت دونهم الستور والأبواب والحراس بحيث تكون عنقاء مغرب (٢) أقرب ملايين المرات للناس من هؤلاء الذين يصدق فيهم قول رسول الله ﷺ : **(من ولاه الله من أمور المسلمين شيئاً فاحتجب دون خلَّتهم وحاجتهم ،وفقرهم وفاقتهم ،احتجب الله عنه يوم القيامة، دون خلته، وحاجته، وفاقته، وفقره)** (٣) .

إذا قامت السدود بين الراعي والرعية بحيث أن الوصول إلى الحاكم صار ضرباً من المحال، وصار المنكر عاماً هل يظل النصح سراً ؟!!! .

إن القول باستحباب نصح الإمام سراً لا يمنع من الإنكار عليه علانية على الصحيح إن احتمل المقام ذلك وكانت المصلحة تقتضيه؛ لا سيما إذا صدر المنكر علانية، فالأمر دائر مع المصلحة وهذا هو الوسط في هذه المسألة، كما أن في هذا القول جمعاً لأدلة هذا الباب والآثار الواردة فيه.

قال النووي عند كلامه على حديث أسامة بن زيد السابق :

(وفيه الأدب مع الأمراء واللطف بهم ووعظهم سراً وتبليغهم ما يقوله الناس

---

(١) السيل الجرار للشوكاني ٤ / ٥٥٦ .

(٢) طائر أسطوري عظيم معروف الاسم غير معروف الجسم.

(٣) **صحيح** ، رواه أبو داود برقم ٢٩٤٨ ،والطبراني في المعجم الكبير برقم ٨٣٢ والحاكم في المستدرك برقم ٧٠٢٧ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٧٣٨٥ ، والسنن الكبرى برقم ٢٠٠٤٥ ، ومسند الشاميين برقم ١٤٠٤ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٦٢٩ ، وصحيح أبي داود برقم ٢٥٥٥ ، وصحيح الترغيب والترهيب برقم ٢٢٠٨ .

فيهم لينكفُّوا عنه، وهذا كله إذا أمكن ذلك؛ فإن لم يمكن الوعظ سراً والإنكار فليفعله علانية لئلا يضيع أصل الحق) [١] .

إن المنكر إذا كان عاماً فإن النهى عنه يكون عاماً، ففتوى الإمام مالك المتعلقة بطلاق المكره كانت عامة ، كذا موقف الإمام أحمد من فتنة خلق القرآن كان جهاداً وعلانيةً، ومن قبله موقف الإمام الثورى، وإنكار سلطان العلماء العز بن عبد السلام على السلطان إسماعيل الذي استعان بالنصارى ضد سلطان مصر كانت عامة ، وفي خطبة جمعة في المسجد الأموى بدمشق، ولقاء شيخ الإسلام ابن تيمية مع محمود قازان كان على مرأى ومسمع من وفد علماء دمشق الذين كانوا يرافقون ابن تيمية، وأمام كبار قادة جيش قازان، ثم طارت أخبار هذا اللقاء فسمع بها الخاقانات والأمراء الذين أحاطوا بهذا العالم الجليل عند عودته إلى دمشق يتبركون به، ويسألونه الدعاء لهم، ورسائل الإمام النووي التي كان يرسلها إلى سلاطين عصره كانت عامة، لأن عدداً من كبار العلماء الذين كانوا يوقعون عليها من جهة، ومن جهة أخرى فقد كانت هذه الرسائل تتعلق بقضايا عموم الناس.

[٤] إن لم ينتصح سراً ولا جهراً لا يجوز الخروج عليه بالسيف والصبر على ظلمه أولى :

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: **(من كره من أميره شيئاً فليصبر ؛ فإنه من خرج من السلطان شبراً فمات ، مات ميتة جاهلية)** [٢] .

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ : قال ابن بطال : في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار ، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه ، لما في ذلك من حقن للدماء وتسكين الدهماء [٣] .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ٩٢ .
(٢) رواه البخاري برقم ٦٦٤٥ ، ومسلم برقم ٥٦ / ١٨٤٩ .
(٣) فتح الباري ١٣ / ٧ .

obeikandi.com

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت الصادق المصدوق ﷺ يقول: (**هَلَكَةُ أمتي على يد غلمة من قريش**) فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة، فقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو شئت أن أقول بني فلان، بني فلان لفعلت) [١].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: قال ابن بطال: وفي الحديث أيضاً حجة لما تقدم من ترك القيام على السلطان ولو جار؛ لأنه ﷺ أعلم أبا هريرة بأسماء هؤلاء، وأسماء آبائهم، ولم يأمرهم بالخروج عليهم مع إخباره بأن هلاك الأمة على أيديهم، لكون الخروج أشد في الهلاك، وأقرب في الاستئصال من طاعتهم، فاختار أخف المفسدتين، وأيسر الأمرين [٢].

وفي حديث أم سلمة عند مسلم عن النَّبيّ ﷺ قال (**إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون، وتنكرون فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع**) قالوا: يا رسول الله أفلا نقاتلهم؟ قال ﷺ: (**لا، ما صلوا**) [٣].

وعند مسلم عن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (**خيار أئمتكم الذين تحبونهم، ويحبونكم ويُصلون عليكم، وتصلون عليهم**[٤]، **وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**) قيل: يارسول الله أفلا ننابذهم بالسيوف؟، فقال: (**لا ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من وُلاتكم شيئاً تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يداً من طاعة**) [٥].

وإقامة الصلاة بالنسبة إلى الحاكم تعني شهود صلاة الجماعة في المساجد، والدعوة إليها، وإقامة الحدود المتعلقة بها.

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٤١٠، ٦٦٤٩، والإمام أحمد برقم ٨٢٨٧، وكنز العمال برقم ٣٠٨٩٩.

(٢) فتح الباري ١٣ / ١٢.

(٣) رواه مسلم برقم ٦٣ / ١٨٥٤.

(٤) أي يدعون لكم وتدعون لهم

(٥) رواه مسلم برقم ٦٥، ٦٦ / ١٨٥٥، والإمام أحمد برقم ٢٤٠٢٧، وسنن الدارمي برقم ٢٧٩٧، وصحيح ابن حبان برقم ٤٥٨٩، ومعجم الطبراني الكبير برقم ١١٥، وسنن البيهقي ١٦٤٠٠، ومسند الشاميين برقم ٦٣٧، وكنز العمال برقم ١٤٨٣٩.

obeikandl.com

وحديث مسلم السابق نص ظاهر واضح في أن الإمام وإن استحق اللعن من المسلمين وكان بغيضاً إليهم، مبغضاً لهم، لا يجوز الخروج عليه بالسيف ما أقام الصلاة.

وقال أهل السُّنَّة والجماعة، والسلف قاطبة: إنه لا يجوز الخروج على الإمام الذي ما زال يصلي إلا أن يكفر كفراً بواحاً، والبواح هو العلانية الشائع أي: يُعلن ذلك، ولا يكون مسراً به لأهل خاصته مثلاً.

واستندوا في ذلك إلى حديث جنادة بن أبي أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو مريض، فقلنا: حدثنا ـ أصلحك الله ـ بحديث ينفع الله به، سمعته من رسول الله ﷺ فقال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: (**إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان**) (١).

وهذا نص ظاهر في عدم جواز منازعة الإمام الأمر إلا أن يعلن الكفر علانية، وقوله: (عندكم من الله فيه برهان) أي: نص آية، أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه: لا يجوز الخروج عليهم مادام فعلهم يحتمل التأويل.

قال أبو جعفر الطحاوي: ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف.

ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى أن طاعتهم من طاعة الله فريضة ما لم يأمر بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة (٢).

قال النووي - رحمه الله -: وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته وأجمع

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٦٤٧، ومسلم برقم ٤٢ / ١٧٠٩، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ١٦٣٣٠.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٩.

أهل السُّنَّة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق،ثم قال: قال العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه (١) .

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: (لا يجوز بحال إنكار منكر الإمام المسلم بالسيف، وإنما يُكتفي بإنكار منكره بالقلب واللسان؛ وذلك أن الضرر الواقع على جمهور المسلمين من الخروج عليه أشد من انحراف الحاكم وظلمه؛ فإن السيف إذا وقع بين الأمة وقعت بسببه مفاسد كثيرة، فالإمام لا بد أن ينحاز له كثيرون معه وخاصة إذا كانت الشوكة بيده، كالسلاح والجيوش، وهؤلاء حتماً سيتعصبون له، ومن ذا يستطيع أن يصل إلى الإمام دون أن يقع القتل في مسلمين كثيرين يستتر بهم الإمام) (٢) .

فهذا مذهب أهل السُّنَّة والجماعة خلافاً للخوارج والمعتزلة الذين أوجبوا إنكار منكر الإمام بكل صورة من صور الإنكار: اليد واللسان، والقلب.

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: وأما استدلال الخوارج والمعتزلة بقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (وإذا أسأت فقومونى) فقال له رجل: (لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا) في وجوب الخروج على الإمام بالسيف إذا انحرف أو ظلم في نظرهم عما يعتقدونه، ففيه نظر، وذلك لأن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قوموني) ولم يقل: (قوموني بالسيف) ، كما أن قول الرجل في رده على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تطاول منه على أمير المؤمنين ، ولم يشأ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يرد عليه، وهو في مقام الإمام، وفي خطبته الأولى حتى لا يُتهم بالدفاع عن نفسه وإلا فهذا الأمر أشبه بين السلف مما هو معلوم من الدين بالضرورة (٣) وهذا إن صحت الرواية .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ٢٢٩ .

(٢) من كتاب فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى الله للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ص ١١٧ .

(٣) السابق ص ١١٦ .

وقال أيضاً: ولنعلم أن كلمة الحق أقوى من ظلم أي سلطان مهما كان، وصبر أهل الحق على حقهم وتعرضهم للأذى في سبيله، وانتظارهم لفرج الله ورحمته ، عوامل رئيسية لانكسار الباطل، واندحاره مهما كان.

كما أن افتراض الشر دائماً بالسلاطين من اتباع الظن، ومن الحكم على القلوب التي لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ونحن نعتقد أن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء (١) .

وكذا لا يجوز إقامة المظاهرات والاعتصامات والإضرابات وأعمال الشغب وما شابهها والتي لم يجر عليها عمل السلف الصالح ويترتب عليها ضياع الأمن وإثارة الفتن.

ثانياً: إن كان الحاكم غير مسلم :

وأما الولاة الذين لا يحكمون بالشرع ويحاربون الإسلام وأهله؛ فإن لكل حالة لبوساً ولكن ترك الخروج المسلح حتى لا تراق دماء المسلمين الأبرياء فيه الخير كل الخير، والصبر على الأذى هو طريق النبيين والمرسلين ويكفي قول النَّبيّ ﷺ لخباب رضي الله عنه وقد لاقى ما لاقى هو والصحابة : (ولكنكم تستعجلون) فلينظر إلى فتاوى العلماء الربانيين الصادقين ولا يندفع الناس بعواطفهم إلى تيه مظلم وفتن تعجز عن حملها الجبال، وكم مدينة فُتِحت بالسيف والسنان، وكم من مدينة فتحت بالعلم والقرآن .

ثالثاً بالنسبة للعلماء :

[١] يجب على من علم الحق بدليله أن يصدع به ولا يكتمه خشية السلطان:

فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) ﴾ [البقرة :١٥٩] .

---

(١) السابق ص ١١٨ .

قال الطبري: وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاص من الناس؛فإنها معنىٌ بها كل كاتم علماً فرض الله بيانه للناس، وذلك نظير الخبر الذي رُوى عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(من سُئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار)** [١].

قال الشيخ رشيد رضا: (إن العبرة في الآية هي أن حكمها عام، وإن كان سببها خاصاً، فكل من يكتم آيات الله وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة،ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجة على الذين لبسوا لباس الدين من المسلمين وانتحلوا الرئاسة لأنفسهم بعلمهم،حاولوا التفصّي منه[٢]، فقال بعضهم: إن الكتمان لا يتحقق إلا إذا سُئل العالم عن حكم الله تعالى فكتمه، وأخذوا من هذا التأويل قاعدة هي أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما أنزل الله تعالى ودعوة الناس إليه وبيانه لهم؛ وإنما يجب على العالم أن يجيب إذا سُئل عما يعلمه، وزاد بعضهم: إذا لم يكن هناك عالم غيره وإلا كان له أن يحيل على غيره.

وهذه قاعدة مسلمة عند أكثر المنتسبين إلى العلم اليوم وقبل اليوم بقرون، وقد ردها أهل العلم الصحيح، فقالوا: إن القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد على الكتمان، بل أمر ببيان هذا للناس، وبالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبرة فيما حكاه عن الذين قصروا فيها من قبل، ثم قال: (ما ورد عن تدافع علماء السلف في الفتوى فإنما هو في الوقائع العملية الاجتهادية، التي تعرض للناس، لا في الدعوة إلى مقاصد الدين الثابتة بالنصوص وسياجها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [٣].

إن هؤلاء كتموا ما أوجب الله عليهم بيانه والصدع به، وسكتوا عن بيان قواعد الدين وإسقاطها على الواقع خوفاً من السلطان، والله جل وعلا أحق بالخوف والخشية من أعتى سلاطين الأرض وهذه والله هي الفتنة !!!.

---

(١) تفسير الطبري ٣ / ٢٥٢ دار المعارف، قال الشيخ أحمد شاكر: هذا حديث صحيح رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة، وخرجناه في شرح المسند، وفي صحيح ابن حبان.

(٢) التفصي منه: التفلت والهروب منه.

(٣) تفسير المنار ٢ / ٥١.

كان العلماء الربانيون يقولون والخطر محدق بهم من كل جانب: (إذا أجاب العالم تُقية والجاهل يجهل متى يتبين الحق ؟) ، وهذا يعني أن بعضهم كان يُفضِّل الموت على التُقية [١] .

وكانوا يعتقدون وجوب إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾[آل عمران : ١٨٧] ، ويؤمنون بحرمة السكوت عن بيان الأحكام، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بليّ أعناق النصوص أو تحريف الكلم عن مواضعه كما يفعل البعض في أيامنا هذه.

[٢] الحذر من كثرة الدخول على السلطان الظالم:

الحذر من كثرة الدخول على السلطان الظالم إلا لنصحه لأنها مجلبة لكل فساد فلقد كان العلماء الربانيون ينأون بأنفسهم عن مجالسة السلاطين والتزلف لهم[٢] ، وقبول وظائفهم وأعطياتهم .

فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**من بدا جفا** [٣] ، **ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا إزداد من الله بعداً**) [٤] .

ورحم الله الإمام سفيان الثوري الذي قال : (ما أخاف من إهانتهم لي ، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم) [٥] .

ولما احتج قوم على أبي حامد الغزالي ـ لما أفتى بعدم جواز أخذ أعطيات

---

(١)**التقية** : إظهار خلاف ما في القلب حفظاً للنفس.

(٢)**التزلف** : التقرب .

(٣)من بدا جفا : أي من سكن البادية أصيب بالجفاء وقسوة القلب .

(٤)**حسن صحيح** : رواه أبو داود برقم ٢٨٥٩ والترمذي برقم ٢٢٥٦ ، والنسائي برقم ٤٣٠٩ ، والإمام أحمد برقم ٣٣٦٢ ، والطبراني في الكبير برقم ١١٠٣٠ ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم ٢٤٨٦ ، وحسنه في السلسلة الصحيحة برقم ١٢٧٢ .

(٥)تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٢٢ دار الفكر .

الظالمين ـ وقالوا إن بعض الصحابة والتابعين كانوا يأخذون أعطيات وجوائز الظالمين، فقال ـ رحمه الله ـ : (إن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبول عطاياهم وجوائزهم ، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم، ولا يغشون مجالسهم ولا يُكَثِّرون جمعهم ولا يحبون بقاءهم، (بل يدعون عليهم ويُطلقون اللسان فيهم، وينكرون المنكرات منهم عليهم، فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ، ولم يكن يأخذهم بأس)(١) ، فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثُّر بهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية، والإطراء في حضورهم ومغيبهم ، فلو لم يذلَّ الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردد بالخدمة ثانياً وبالثناء والدعاء ثالثاً ، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعاً ، وبتكثير جمعه في مجالسه وموكبه خامساً ، ولإظهار الحب والموالاة والمناصرة على أعدائه سادساً ، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعاً ، لم يُنعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي ــ رحمه الله ــ مثلاً ، فإذاً لا يجوز أن يؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني ، فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه ؟ فمن استجرأ على أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدَّادين)(٢) .

إن غشيان العلماء لمجالس الأئمة العدول بقصد تذكيرهم بالقيامة والمعاد ، وتحذيرهم من الركون إلى الدنيا وتبليغهم بمظالم الرعية التي لم تبلغهم واجب

---

(١) كان ذلك كله مضبوط بالضوابط السابق بيانها.
(٢) إحياء علوم الدين ٢ / ١٣٩ .

شرعي لقوله ﷺ : **(الدين النصيحة)** ، قلنا لمن ؟ ، قال : **(لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم)** (١) .

بل هو النصح وهو أصل عظيم من أصول الإسلام ، قال جرير بن عبد الله : (بايعت النَّبيّ ﷺ على النصح لكل مسلم) (٢) .

عن كعب بن عجرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَّبيّ ﷺ : **(سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منِّي ولست منه ، وليس بوارد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يُعنهم على ظلمهم ولم يُصدقهم بكذبهم فهو منِّي وأنا منه ، وهو وارد عليَّ الحوض)** (٣) .

قال أبو سليمان الخطابي : (ليت شعري من الذي يدخل إليهم اليوم فلا يصدقهم على كذبهم ، ومن الذي يتكلم بالعدل إذا شهد مجالسهم ، ومن الذي ينصح ومن الذي ينتصح منهم ؟ إن أسلم لك يا أخي في هذا الزمان وأحوط لدينك أن تُقلَّ من مخالطتهم وغشيان أبوابهم) (٤) .

قال ابن الجوزي : (وليس على العالِم أضر من الدخول على السلاطين فإنه يحسِّن للعالِم الدنيا ويهون عليه المنكر، وربما أراد أن ينكر فلا يصح له،فإن عدم القناعة وغلبت نفسه في طلب فضول الدنيا سلم عليه لأنه يتعرض بأربابها) (٥) .

---

(١) رواه مسلم برقم ٩٥ / ٥٥ ، وأبو داود برقم ٤٩٤٤ ، والنسائي برقم ٤١٩٧ ، والإمام أحمد برقم ١٦٩٨٣ ، وسنن الدارمي برقم ٢٧٥٤ ، وصحيح ابن حبان برقم ٤٥٧٥ ، وسنن البيهقي الكبرى برقم ١٦٤٣٤ ، ومسند الحميدي برقم ٨٣٧ .

(٢) رواه البخاري برقم ٥٧، ٥٠١، ١٣٣٦، ٢٠٤٩، ٢٥٦٥، ٢٥٦٦، ٦٧٧٨ ، ومسلم برقم ٩٧ / ٥٦ ، والترمذي برقم ١٩٢٥ ، والنسائي برقم ٤١٥٦ ، والإمام أحمد برقم ١٩٢١٤ ، وصحيح ابن خزيمة برقم ٢٢٥٩ ، وصحيح ابن حبان برقم ٤٥٤٥ ، والمعجم الكبير للطبراني برقم ٢٢٤٤ .

(٣) رواه الترمذي برقم ٢٢٥٩ ، والنسائي برقم ٤٢٠٨ ، والإمام أحمد في مسنده برقم ١٨١٥١ ، وصحيح ابن حبان برقم ٢٧٩ ، ومستدرك الحاكم برقم ٢٦٣ ، وسُنن البيهقي الكبرى برقم ١٦٤٤٦ .

(٤) العزلة والخلطة، هكذا عزاه الشيخ العفاني .

(٥) صيد الخاطر ص ٣٥٨ .